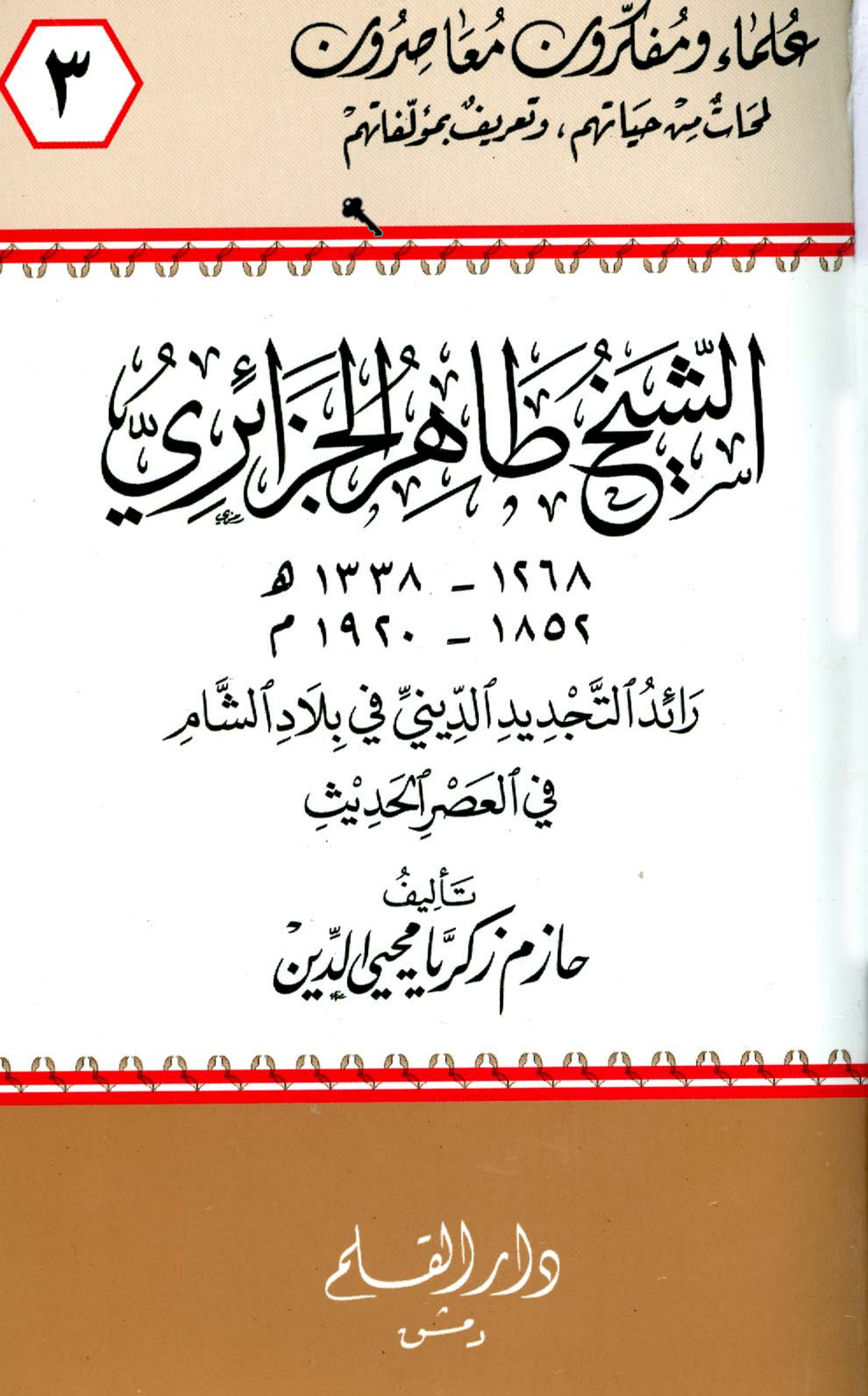

٣
علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم
الشيخ طاهر الجزائري
١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ
١٨٥٢ - ١٩٢٠ م
رائد التجديد الديني في بلاد الشام
في العصر الحديث
تأليف
حازم زكريا محيي الدين
دار القلم
دمشق

علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

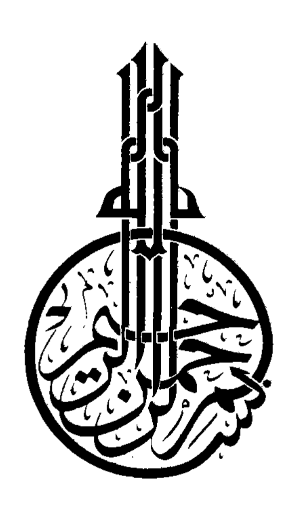


الشيخ طاهر الجزائري

١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ
١٨٥٢ - ١٩٢٠ م

رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث

تأليف
حازم زكريا محيي الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فقد كان الشيخ طاهر الجزائري رجل أمة بكل ما لهذه الكلمة من معنى، جاء في زمن صعب، عانت فيه الأمة من الجهل والتخلُّف والضعف أنواعاً وألواناً. فنظر إلى أدواء مجتمعه نظرة فاحصة، ثم فكر في الأسباب والعلاج بعقل واعٍ، ليضع خطة لإنقاذه، ثم ليبدأ تنفيذها، يعاونه في مهمته المقدَّسة هذه لفيف من الأصدقاء والتلاميذ، عرباً وتركاً، آمنوا بما آمن به، فشدّوا على يده، وأعانوه مادياً ومعنوياً، ليحقق ما يصبو إليه.

رأى الجزائري ضعف الروح المعنوية، وضعف الانتماء للأمة، ورأى أن سبب ذلك هو جهل الناس ما كان عليه أجدادُهم من حضارة ورقي وسؤدد، ووجد العلاج في اطلاعهم على ذخائر إسلامهم الزاهر، ليعيد إليهم الثقة بأنفسهم وبأمتهم، وبقدرتهم على البقاء والتحدي والبناء، فكان أن نشر من روائع التراث شذرات منتقاة بعناية، يقرب تناولها لعامة الناس، وخصوصاً الناشئة من شباب الأمة، الذين هم مناط الأمل، وعدة المستقبل.

ورأى الجزائري الجهل قد ران بكلكه على العقول، وسببه الأول

والرئيس تفشّي الأميّة، فكان من يحسن القراءة والكتابة في الحي يعدون على أصابع اليد الواحدة، ورأى العلاج في التعليم، والتعليمُ لا يقوم إلا على ركنين:

الأول: تهيئة المدارس العصرية التي تنافس المدارس التبشيرية (ركيزة الاستعمار الأولى)، فكانت ثمرة جهوده بناء وإعداد عدد كبير من المدارس في بلاد الشام.

الثاني: إعداد المناهج والكتب الملائمة لروح العصر، فكتب من أجل ذلك عدداً من الكتب المدرسية في شتى الاختصاصات.

ثم توّج جهوده بحملة إعلامية واسعة يستنهض فيها همم الأهالي، ويحثهم على إرسال أولادهم وبناتهم إلى المدارس، مبيّناً بشتى الطرق قيمة العلم ودوره في بناء الأمم وصيانة الأوطان، ومن الجدير بالذكر أن الشيخ كان في جهوده التعليمية حريصٌ على أمرين:

الأول: **تعليم البنات** فالأم المتعلمة يعني أسرة متعلمة، وهذا يعني أن كل بيت سيتحول إلى مدرسة.

الثاني: **تعليم اللغات** الذي هو الوسيلة الوحيدة للاطلاع على ما عند الآخرين، وهي الجسور بين الأمم للاستفادة من الخبرات والصناعات وأركان العمران، والجهل بها يعني الانعزال والتخلّف.

قال صفي الدين الحلي:

بقدر لغات المرءِ يكثرُ نفعُه ... وتلك له عند الملمّات أعوانُ
فبادر إلى حفظِ اللغاتِ مسارِعاً ... فكل لسانٍ في الحقيقة إنسانُ

كما رأى الشيخ التخلف الحضاري الذي تعاني منه الأمة، ووجد أن

سبب ذلك هو مفاهيم وعادات أُلبست ثوب الدين ظلماً وزوراً، وأخطر هذه المفاهيم هي التقليد الأعمى والشعور بالكمال الزائف.

فحارب الشيخ هذه المفاهيم المنحرفة، كما حارب الشعوذة والبدع، والاتِّجار بالدين، ودعا إلى تجديد الدين وإحيائه، والعودة إلى المنابع الأصلية، إلى الكتاب والسنة، والاقتباس من نورهما، والاسترشاد بهديهما.

كما دعا الأمة إلى اقتباس كل ما هو نافع في دنياها من أي مصدر كان، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها، وطرح الشعار القائل: خذ ما صفا، ودع ما كدر.

والتفت الشيخ إلى تثقيف العامة، ورأى أنهم أطوع للحق من كثير من أدعياء العلم والمنتفعين بالدين، وخاصة إذا اتبع المصلح الحكمة في دعوتهم، وأعطاهم من العلم ما تطيقه عقولهم، ومهَّد لذلك بالمقدمات المرغبة والمؤسسة.

وابتعد الشيخ عن المعارك العلمية والجدلية، ورأى فيها ضرراً كبيراً، ومَضيعة للوقت والجهد، فالحكيم من حدَّد وسائله، واتبع خطته، لا يصرفه عنها أي صارف، ولا يشغله دونها أي شاغل.

وبالجملة فالشيخ كان متميّزاً بعقل جامع منظّم، وهمة قعساء لا تعرف الكَلل، فاستطاع أن يقف على العلل، ويشخّصها، ويدرك أسبابها، ويضع مشروعاً حضارياً نهضوياً لعلاجها والبرء منها، ولم يكتف بذلك، بل باشر التنفيذ بنفسه، وبدعم إخوانه ممن كانوا على شاكلته وَعياً ولَوْعة، وحقق في دنيا الواقع ما ينفع الناس ويرضي الخالق عزَّ وجلّ.

وقد تكرم الأخ الكريم الأستاذ حازم محيي الدين بإطلاعي على كتابه القيم (الشيخ طاهر الجزائري) وأعجبت بجهده ودأبه في تقصِّي أخبار الشيخ، وآثاره، ودقته في عزْو كل فكرة أو خبر إلى مصدره، وجلا ذلك في عبارة بسيطة رصينة بعيدة من التكلّف والحشو، وإنه بحق باحث واعد ينتظره مستقبل مشرق بإذن الله تعالى.

هذا وقد قسم بحثه إلى فصلين:

الأول: وقد خصصه لحياة الشيخ، وتكوينه العلمي، ودوره التعليمي والنهضوي.

والثاني: للتعريف بآثار الشيخ المطبوعة والمخطوطة، وتوسَّع في الحديث عن كتابي الجزائري: (التبيان) و(توجيه النظر) مع ذكر نماذج مختارة من الكتابين.

ثم ختمه بكلمة جامعة عن آراء الشيخ التجديدية، وذكر آراء العلماء والكتاب فيه.

وقد أتاح لي الأخ حازم حفظه الله تعالى مرة أخرى فرصة الاطلاع على حياة إمام كبير، تميّز بين علماء عصره، وأثَّر في جيله تأثيراً كبيراً، بحيث صار مدرسة فكرية جامعة، وأرجو أن يتحفنا بمزيد من هذه الدراسات حول هؤلاء الروّاد لنصل حبلنا بحبلهم، وجهدنا بجهدهم، ونقتبس من فكرهم، ونستفيد من تجربتهم، فنصحح أخطاءنا، ونصون آراءنا، والله ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٥ / ٣ / ١٤٢١هـ
١٥ / ٨ / ٢٠٠٠م

حسن السماحي سويدان

مقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلامُ على عباده الذين اصطفى.

وبعد: فمن الملاحظ أنّ دراسة الفترة التاريخية التي اصطُلح بشكل عام على تسميتها (عصر النهضة أو اليقظة) في البلاد العربية، في القرن التاسع عشر، والربع الأول من القرن العشرين، قد تمّت في أغلب حالاتها من خلال التركيز على بعضِ الأمور دون غيرها.. أذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ تمَّ التركيز على بعض الأسماء اللامعة في تلك الفترة، مثل: رُفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وخير الدين التونسي.. في حين أنه كان هناك شخصيات كثيرة أسهمت بشكل فعَّال في تلك الفترة، ولم تنل حظّها الكافي من الدراسة العلمية، من أمثال: الشيخ حسن العطار في مصر، والشيخ عبد القادر القباني في لبنان، والشيخ عبد القادر المغربي في سورية، وروحي الخالدي في فلسطين.

٢ ـ نالت مصر والرجال الذين أقاموا فيها عنايةَ معظم الباحثين في هذه الفترة، ومع إقراري بأهمية مصر، ودورها التاريخي في ذلك العصر، لكنّها لم تكن الوحيدةَ في هذا المجال من الدول العربية[1]، فعلى سبيل

---

(١) بل النهضة المصرية شارك فيها كثير من الشاميين وغيرهم ممن وفدوا إلى مصر في القرن التاسع عشر مشاركة فعالة تنتظر من يؤرِّخ لها تاريخاً علمياً، يوثق جمع=

المثـال، شـهدت بلاد الشـام في تلك الفتـرة حالةً من التغيُّـر الفكري، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، لا يُستهان بها. . رغم ذلك نجد أنَّ بلادَ الشام، لم تحظَ بقدرٍ كافٍ من البحوث العلمية، التي تغطِّي جميعَ النشاطات الفكرية والاجتماعية فيها حينئذٍ.

٣ ـ اتجهت معظم البحوث التي درست (عصر النهضة) إلى إبراز وتأكيد فكرة أن نهضةَ المسلمين قد تمّت بشكل رئيس من خلال الاتصال بالغرب عسكرياً وثقافياً، وأنا لا أنكر وجودَ التيار الفكري الذي تبنَّى هذه الفكرة في ذلك العصر، ولا أتنكر لجهوده الفكرية والسياسية، لكنّ الواقع التاريخي آنذاك ـ من خلال الرجوع إلى المصادر التي أرَّخت لتلك الفترة، مثل: (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) لعبد الرحمن الجبرتي في مصر، و(حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر) لعبد الرزاق البيطار في بلاد الشام ـ يشير إلى أنّه كان إلى جانب ذلك التيار، تياراتٌ أخرى من بينها تيـارٌ كان له دورٌ فاعل في اليقظة، مارسـه من موقع آخر غير موقع الاتصال بالغرب وثقافته، بل من موقع التواصل الفكري والروحي مع التراث العربي الإسلامي، ومحاولة هدم بعض الأفكار، أو التركيز على غيرها، أو بث أفكار جديدة وفقَ منظورٍ إصلاحي تجديدي، ينطلق من الفكر الإسلامي أساساً، وينفتح بهذه الدرجة أو تلك على الغرب وثقافته. . وقد مثَّل هذا التيار في بلاد الشام عدد من العلماء المجددين، مثل: الشيخ حسين الجسر، والشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ طاهر الجزائري.

على ضوء هذه الملحوظات البسيطة، أجد أنّ اختياري لموضوع يتعلّقُ ببلاد الشام عامة، وباتجاه العلماء المجددين خاصةً، يكتسب شيئاً

= جوانبها ويحدِّد المكانة المرموقة التي تستحقها في تاريخ مصر الفكري والثقافي.

من المشروعية والأهمية العلمية، ولكي أقترب أكثر من جدية البحث العلمي، وأبتعد قدر الإمكان عن الدراسة العامة، فقد اخترت دراسة الشيخ طاهر الجزائري نموذجاً يعبِّر بشكل واضح عن هذا التيار الفكري الذي انتشر في بلاد الشام خاصةً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.

ـ أما مبرراتي الخاصة لدراسة الشيخ طاهر الجزائري، فهي كما يلي:

١ ـ يُعدُّ الشيخ طاهر أحدَ الشيوخ البارزين، الذين عبَّروا بدقة عن الموقف العام الذي اتخذه العلماء المصلحون في تلك الفترة، والذي يتلّخصُ في الحفاظ على ثوابت الإسلام وأسسه، وعلى التمسُّكِ بالشخصية العربية الإسلامية، وبالوقت نفسه الانفتاح على الغرب، والانتفاع بثمرات علومه الحديثة. وقد تمثل هذا الموقف على الصعيد السياسي من خلال الدعوة إلى المحافظة على الخلافة العثمانية، لكنْ في الوقت نفسه الدعوة إلى إجراء إصلاحات دستورية وإدارية وفكرية جذرية فيها.

٢ ـ تنوُّع المجالات التي اشتغل بها الشيخ طاهر في حياته، فقد كان له نشاط بارز، وآثار فعليّة على الصعيد الديني، والسياسي، والتربوي، والعلمي، والاجتماعي...

أذكر على سبيل المثال أنّه كان على الصعيد الديني من أنصار الاجتهاد ونبذ التقليد والعصبية بين المذاهب الإسلامية المختلفة، هذا فضلاً عن دعوته إلى التعاون مع أصحاب الملل الأخرى فيما فيه نفع عام للأمة.

أما على الصعيد السياسي، فقد كان له موقفٌ محدد من الدولة العثمانية قائم من جهة على الدعوة إلى درء الخطر الخارجي عنها أو ضمان بقائها واستمرارها، ومن جهة أخرى يقوم على الدعوة إلى إدخالِ بعض

الإصلاحات السياسية والإدارية عليها .

أما على الصعيد التربوي والعلمي والاجتماعي، فقد أسْهم في تأسيس عددٍ لا بأسَ به من المدارس الابتدائية للذكور وللإناث، وقام بنفسِه بتأليف بعضِ الكتب المدرسية الخاصة بها، حتى في مجالي الطبيعة والحساب .

وقد قام بجهودٍ كبيرة في نشر وتحقيق التراث العربي الإسلامي، بالإضافةِ إلى تأسيسه المكتبة الظاهرية في دمشق، والمكتبة الخالدية في القدس، فضلاً عن المناصب العامة، التي شغلها في عهد الدولة العثمانية، مثل مفتش عام على المدارس في ولاية سورية أيام الوالي مَدْحت باشا[1] . . هذا بالإضافة إلى مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة، وتشجيعه للصحافة، ودعوته إلى تعلُّم المهن والصنائع، ودراسة لغات الغرب، والانتفاع بأفكاره العلمية والسياسية والاجتماعية .

٣ ـ يُعدُّ الشيخ طاهر صاحبَ مدرسة فكرية في حياته، حيث كانت له حلقة فكرية كبيرة، تضمُّ أهمّ مثقفي الشام في عصره، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي، والمؤرخ الشيخ عبد الرزاق البيطار. وقد تركَ بعد وفاته عدداً من المثقفين والمفكرين الذين درسوا على يديه، وتبنَّوا آراءه وأفكاره، مثل: محمد كرد علي ومحب الدين الخطيب. . .

٤ ـ رغم أن بعض كتبه قد طُبعت، ورغم أنَّ بعض معاصريه قد اهتموا

---

(١) ولد في إستانبول سنة ١٢٣٨هـ ـ ١٨٢٢م، تقلَّد عدة مناصب أشهرها الصدارة العظمى، عمل على إصدار الدستور عام ١٢٩٣ ـ ١٨٧٦م، وعُيِّن والياً على سورية، ثم اتُّهم بعلاقته بقتل السلطان عبد العزيز، نفي إلى الطائف وقتل هناك عام ١٣٠١هـ ـ ١٨٨٣م.

به، وكتبوا عنه، إلا أننا لانكاد نجد عنه إلا كتابين كاملين ـ حسب ما وصلتُ إليه ـ هما: (تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر) لتلميذه الشيخ محمد سعيد الباني. و(الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته) للدكتور عدنان الخطيب. ومن هنا تظهر الحاجة إلى إلقاء مزيد من الأضواء العلمية على حياة الشيخ طاهر وجهوده الإصلاحية.

وقد قسمّت دراستي هذه إلى فصلين:

عرضت في **الفصل الأول** سيرة وحياةَ الشيخ طاهر الخاصة، وتكوينَه العلمي والخُلقي، الذي مكَّنَه من القيام بأعباء الإصلاح. كما عرضتُ حياتَه العامة، ومدى تنوع إسهاماته العلمية والاجتماعية...

أما الفصل الثاني: فقد خصصته لعرض آثار الشيخ طاهر العلمية من مؤلفات ونشرات، ومخطوطات، ورسائل، وقد حاولتُ من خلال رسائله إبرازَ بعض أفكاره الإصلاحية.

وفي الخاتمة: حاولت أن أبيِّن الخطة الفكرية، التي اتَّبعها الشيخ طاهر في حياته، والأسلوبَ الذي اعتمده لبلوغ أهدافه التجديدية. وذكرتُ بعضَ أقوال الكُتَّابِ والمفكرين في الشيخ طاهر لِيقفَ على مقدار الأثر الذي خلَّفه في حياتنا الفكرية.

ـ أما أهم المراجع التي اعتمدتُ عليها في دراستي هذه، فهي: كتاب (تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر) الذي ألَّفه الشيخ محمد سعيد الباني بعد وفاة شيخه الجزائري، فقد قدَّم لي هذا الكتاب مادةً علمية غنية عن حياة ومؤلفاتِ الشيخ طاهر[١]. وقد استفدتُ أيضاً ممَّا كتبه الأستاذ

---

(١) وقد طبع في مطبعة الحكومة العربية عام ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢٠م.

محمد كرد علي في كتابيه (كنوز الأجداد) و(المعاصرون)[1]، فقد وثَّق الأستاذ كرد علي، نتيجة صحبته الطويلة للشيخ الجزائري، معظم أحداث حياته الرئيسة، وعرض طائفةً لا بأس بها من آرائهِ.

وقد استفدتُ كثيراً من كتاب (جمال الدين القاسمي وعصره)[2] للأستاذ ظافر القاسمي الذي أمدَّني بمعلومات هامة عن علاقة الجزائري بالقاسمي، والمراسلات التي تمت بينهما، وعن هجرة الجزائري إلى مصر وإقامته فيها.

أما الكتاب الذي وجَّه فصول دراستي فهو كتاب (الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)[3] للدكتور عدنان الخطيب أمين عام مجمع اللغة العربية في دمشق.

وقد استفدت كثيراً من الدكتور الخطيب ـ فضلاً عن كتابه ـ من خلال الأسئلة الكثيرة التي أجابني عنها بتفهُّم عميق وصدر رحب، فجزاه الله كل خير[4].

وأخيراً فقد أسعدني أن تقوم دار القلم بدمشق بطباعة كتابي هذا في سلسلتها الجديدة (علماء ومفكرون معاصرون: لمحات من حياتهم

---

(١) وهما من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٢) وهو من منشورات مكتبة أطلس بدمشق عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٣) وهو من محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة التابع لجامعة الدول العربية، وقد نشره المعهد عام ١٩٧١م.

(٤) وقد أعارني الدكتور عدنان الخطيب ـ مشكوراً ـ نسخةً من كتابه وكتاب (تنوير البصائر) للباني، وكتاب (المذكرات) لمحمد كرد علي، و(مذكرات) محب الدين الخطيب.

وتعريف بمؤلفاتهم)، فلدار القلم شكري، وتمنياتي الطيبة لسلسلتها الجديدة.

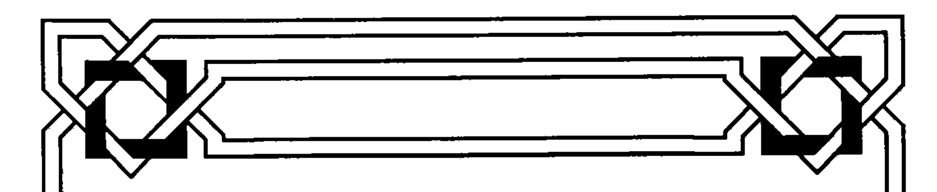
ولله الحمد أولاً وآخراً، وأتوجه إليه سبحانه داعياً:

«ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم».

دمشق ١٩/ ٢/ ١٩٩٥م

حازم زكريّا محيي الدّين





الفَصلُ الأول

لمحات من حياته

أولاً: حياته الخاصة وتكوينه العلمي.

ثانياً: حياته العامة ودوره العلمي والاجتماعي.



الفصل الأول

لمحات من حياته

(١)

حياته الخاصة وتكوينه العلمي

١ ـ ولادته ونسبه :

أ ـ ولادتُه :

وُلد الشيخ طاهر في دمشق في ليلة الأربعاء الموافقة للعشرين من شهر ربيع الثاني سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م). وجاء في تسميته (طاهر)، أنه عندما بلغ خبرُ ولادته والدَه الشيخ صالح الجزائري، وكان آنذاك برفقة شيخه الشيخ **محمد المهدي الزواوي**، قال الشيخُ لمريده الشيخ صالح: «إنّه الطاهر». وسجَّل الشيخ صالح هذه الحادثة على هامش كتاب (المجموع الفقهي) للعلامة الأمير المالكي، الذي كان بين يديه، وأضاف يقول: «طهَّره الله من رجس دنياه، وبارك في عمره، ورزقه العلم والعمل به»[1].

(١) انظر: محمد كرد علي (كنوز الأجداد)، ط٢، دمشق، دار الفكر: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٩.

ب ـ نسبُه :

هو الشيخ طاهر بن صالح بن أحمد حسين بن موسى بن أبي القاسم السمعوني الوغليسي الجزائري الدمشقي الحسَني .

وقد نُسب إلى دمشق موطنُ ولادته ونشأته ووفاته . ونُسبَ إلى الجزائر ، لأنّه البلد الذي جاءت منه أسرتُه مهاجرةً إلى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي .

ونُسب إلى (وغليس) وهو وادٍ قرب بجّاية شرقيّ الجزائر ، أقام فيه بنو (وغليس) وهم بطنٌ من بطون قبيلة (كتامة) فسمي باسمهم .

وأما سمعون التي نُسِبَ إليها أيضاً ، فهي ـ كما قال العلاّمة الشيخ محمد حسن الفضلاء أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين في الجزائر ـ مجموعة قرى أو أحياء في أعالي وادي بني (وغليس) كان يوجدُ فيها معهد أو زاوية سيدي الحاج أحمد حسين ، جد الشيخ طاهر الجزائري[١] .

وأما نسبة (الحسني) ، فقد جاءته كما يقول بعضُ مؤرّخيه من اتصال نسب أسرته بالإمام الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فقد قال تلميذه الشيخ محمد سعيد الباني : «ويُقال : إنّه صحيح النسب إلى سيِّدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولم يكن الفقيدُ يخبِرُ بذلك ، لأن انتسابَه إلى العلم يكفيه ، لكن حينما سأله بعضُ أصحابه ،

---

(١) انظر : مازن المبارك (الشيخ طاهر الجزائري) ، في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، ٧(١٤١٤/ ١٩٩٣) ، ص١٨٣ ـ ١٨٥ .

أجابه: كذا يقولون»[1].

وقال محمد كرد علي: «ويزهدُ في اعتباراتٍ كثيرة، يتفانى الناس في تحصيلها، يزهدُ حتّى في نِسبته إلى الشرف[2]، ولم يذكر ذلك إلا مرةً واحدةً، ذكّره فيها أحدُ صلحاء الجزائريين أمامي، وسألتُه بعد ذلك عن نِسبَة بيتهم إلى الشرف، فقال: هكذا يقولون»[3].

٢ ـ نشأته العلمية وشيوخه:

نشأ الشيخ طاهر في حِجْرِ والده الشيخ صالح الجزائري، وأخذَ على يديه مبادئَ علوم الشريعة واللغة العربية، ثم أدخله والدُه مدرسة رشدية (مدرسة ابتدائية)، بعد ذلك التحقَ بالمدرسة (الجقمقية) الاستعدادية[4] (الإعدادية)، فتابع هناك دراسته، وتخرج بالأستاذ الشيخ عبد الرحمن البوسنوي، الذي تلقّى على يديه اللغة العربية، والفارسية، والتركية، وتوسَّع في دراسة العلوم الشرعية.

---

(١) محمد سعيد الباني، تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، ص١٣٩ وص١٦٤ من الطبعة الثانية المنشورة ضمن كتاب (علماء الشام كما عرفتهم) للمؤلف محمد سعيد الباني.

(٢) أي إلى آل البيت.

(٣) محمد كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٧.

(٤) المدرسة الجقمقية: مدرسة قديمة، تقع قرب الباب الشمالي للمسجد الأموي بدمشق، إلى الشرق من ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبيّ، أسسها سنجر الهلالي، وولدُه شمس الدين، ثم احترقت في غزو تيمورلنك، فجدّد بنيانها سيف الدين جقمق، الذي تولى نيابةَ دمشق سنة: ٨٢٢/ ١٤١٩ فنُسِبت إليه. وقد تحولت اليوم إلى متحف للخطّ العربي. انظر: عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ط٢، بيروت، المكتب الإسلامي: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦٠ـ ١٦٣.

ثم اتصل بعد تخرجه من هذه المدرسة بعالم عصرِه الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، الذي كان له أكبر الأثر وأعمقه في تكوينه العلمي، وفي توجيهه نحو الإصلاح والقيام بأعبائه[1]. ونظراً لأهمية الأثر الفكري الذي تركه كلٌّ من الشيخ صالح الجزائري والشيخ عبد الغني الميداني في حياة الشيخ طاهر، فسأفرِدُ لكلٍّ منهما ترجمةً خاصة.

أ ـ الشيخ صالح الجزائري:

ولد الشيخ صالح في وادي بني وغليس قرب بجّاية، التي نشأ بها، وأخذ عن علمائها، وجدَّ في تحصيل العلوم النقلية والعقلية، ولما احتلت فرنسة الجزائر عام ١٨٣٠م، وتعطّلت فيها المساجد ودروس العلم، وخاف الناس فيها على دينهم وعيالهم، هاجر الشيخ صالح مع الهجرة الجزائرية الأولى، التي أتت إلى دمشق برئاسة الشيخ محمد المهدي السكلاوي الزواوي المغربي؛ أحد مشايخ الطريقة الخَلْوَتِيّة في الجزائر في عصره[2] ـ وفيها هاجر ما يقرب من (٥٠٠) أسرة جزائرية استوطنت دمشق بعد ذلك، وكانت هذه الهجرة عام (١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م)[3].

وبعد أن وصل الشيخ صالح إلى دمشق، واستقرَّ بها، بدأ يتردّدُ على مجالس علمائها، حتى ذاع علمه، وعُرف فضله، فأُسند إليه منصب إفتاء المالكية في دمشق. وأصبحَ يعيدُ درس (صحيح البخاري) للشيخ أحمد

---

(١) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص٩.

(٢) هذا يعني أن الشيخ صالح كان من أتباع الطريقة الخَلْوَتِيّة، والتي أصبح الشيخ محمد المهدي نفسه مقدَّمَها في دمشق.

(٣) انظر: محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، دمشق، دار الفكر: ١٤٠٦/ ١٩٧٦، ص١ ـ ٣٦٦.

مسلّم الكزبري تحت قبة النسر في الجامع الأموي في الأشهر الثلاثة (رجب، شعبان، رمضان)، ولا يخفى ما في هذه الإعادة لدرس البخاري من اعترافٍ بقيمة الشيخ صالح العلمية من قِبل علماء دمشق، الذين كانوا يتحرّون كل التحري عند إسناده هذه المهمة إلى أحد من العلماء.

وقد عُرف الشيخ صالح باهتمامه بعلم الفَلكَ، والتاريخ، ويُقال: إنّه انفرد بعلم الفَلَك في دمشق في عصره. واهتمامُ الشيخ بعلم الفلك والتاريخ يفسِّر لنا اهتمامَ ابنه الشيخ طاهر ـ فيما بعد ـ بالعلوم العصرية على عمومها، واهتمامه البالغ بعلم التاريخ، ودراسته على اختلاف أزمانه ومراحله.

ترك الشيخ صالح لنا عدداً من المؤلفات العلمية (وهي كلها مخطوطة) التي تشيرُ إلى تنوّع اهتماماته، وتميُّزها، خصوصاً في ذلك العصر. وقد عُرف من مؤلفاته:

١ ـ منظومة في الفقه، وشرح لها، وحاشية عليها.

٢ ـ رسالة في اختلاف المذاهب.

٣ ـ رسائل في علم الميقات على منهج السوسي من المغاربة.

٤ ـ تاريخ على طريق الرمز والإشارة، وصل فيه إلى ولاية رشدي باشا الشرواني على الشام. أي إلى سنة ١٢٧٩هـ.

توفي الشيخ صالح في دمشق سنة (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) وهو ـ كما يقول ابنه الشيخ طاهر ـ بين الأربعين والخمسين من عمره. وقد دُفن في مقبرة (الباب الصغير) في دمشق[1].

---

(١) انظر: محمد أديب الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، ط٢. بيروت، دار=

ب ـ الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني :

هو الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة بن سليمان الغنيمي، الدمشقي، الحنفي الشهير بالميداني.

ولد في دمشق عام (١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م)، وأخذ العلم عن علمائها الكبار كإمام المحدِّثين في الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري الشافعي، ومفتي الحنفية في عصره الشيخ محمد أمين عابدين صاحب كتاب (رَدُّ المحتار على الدر المختار)، المعروف بحاشية ابن عابدين، وشيخ محلّة الميدان في وقته الشيخ حسن البيطار الحنفي الماتريدي، وكان جُلُّ انتفاعه به.

ونسبة (الغنيمي) هي إلى إحدى الطرق الصوفية المتشعّبة عن الطريقة الشاذلية، وقد ترك الغُنيمي طريقةَ أجداده الصوفية، وسلك طريق الكتاب والسنة[1]. وأغلبُ الظن أنّ الشيخ الغنيمي هو الذي حال بتوجيهه بين تلميذه الشيخ طاهر وبين الطريقة الخَلْوَتية، التي كان والده الشيخ صالح من أتباعها، ووجّهه في الوقت نفسه إلى دراسة الشريعة من أصولها، بعيداً عن العصبيات المذهبية والبدع، التي انتشرت في الفكر الإسلامي بعد عهد السلف الزاهر.

= الآفاق الجديدة: ١٣٩٩/ ١٩٧٩، ٢/ ٦٦٤؛ محمد جميل الشطي، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر، دمشق، المكتب الإسلامي: ١٣٩٣/ ١٩٧٣، ص١٤٩ ـ ١٥٠.

(١) انظر: عبد الله حنا، حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ط١، بيروت، دار ابن خلدون: ١٤٠٥/ ١٩٨٥، ص٨٥ ـ ١٢٤.

فقد كان الشيخ الميداني ـ كما يقول محمد كرد علي ـ: «. . . على جانبٍ عظيم من التقوى والورع، يمثل صورةً من السلف الصالح، فطبع الشيخ طاهراً بطابعه، وأنشأه على أصح الأصول العلمية الدينية، وكانت دروسُه دروساً صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذِ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقاتُ المتأخّرين، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين»[1].

وقد نقل لنا محمد سعيد الباني ثناء الشيخ طاهر على شيخه الميداني، وشيئاً عن علاقته به، فقال: «وكثيراً ما سمعتُ الفقيدَ (أي الشيخ طاهر) يُطْريه، ويثني عليه، بأنه من العلماء المحقِّقين، الواقفين على لُباب الشريعة وأسرارها، البعيدين عن البدع والخرافات.

وأخبرني أنّه حينما حضر عنده (التلويح) لسعد التفتازاني على (توضيح التنقيح) لصدر الشريعة في أصول الفقه، وجد منه تحقيقاً يُعْرِبُ عن غزارةِ وارتقاءِ فكره، غير أنّه كان يؤْثِرُ الخمول على حُبِّ الشهرة والظهور، فلا يرغب في المناقشة والتفصُّح في المجالس الحافلة، ولكنّه إذا سُئل على انفراد عن عويصات المسائل، تجدُ منه حَلَّال المعضلات، وكشاف الأستار عن الأسرار»[2].

وقد شارك الشيخ الغنيمي في أحداثِ عصره، فهو الذي حالَ بإرشاده وتوجيهه ومكانته الدينية مع بقية علماءِ وأعيانِ الميدان في أحداث الفتنة الطائفية بين المسلمين والنصارى عام ١٨٦٠م، دون تعدِّي فتيان المسلمين على جيرانهم النصارى في محلّة الميدان، فأنقذَ بموقفه هذا

---

(١) كرد علي، كنوز الأجداد، ص٩.

(٢) الباني، تنوير البصائر، ص٧٤، ١١٠، ١١١ من الطبعة الثانية (علماء الشام كما عرفتهم).

بضعةَ ألوفٍ من القتل في تلك المذابح المشؤومة[1].

وفي عـام (١٨٦٢م) بدأ الشـيخ الميداني يتردَّدُ على حلقـة الأمير عبد القادر الجزائـري في دمشـق، وفي هذا العام نفسـه سافر مع الأميـر عبد القادر إلى الحجاز، وفي الطريق إلى مكـة توقفوا في الإسـكندرية، حيث استقبلهم هناك قناصل الدول الأجنبية، والموظّفون الرسـميون المصريون.

وفي القاهرة دعاهم الخديوي إسماعيل إلى الحفلة التي أقامها على شـرف المهندس المعمـاري الفرنسـي[2]، الذي أشـرف على إنشـاء قناة السويس[3].

من مؤلفات الشيخ عبد الغني الميداني:

١ ـ (اللباب شـرح الكتاب)، في مجلدين، وهو شـرح على متن القُدوري في فروع الفقه الحنفي. وقد طبع في حياة مؤلفه، ثم طبع مراراً في مصر وإستانبول.

٢ ـ (شرح المراح في الصرف).

٣ ـ (كشف الالتباس فيما أورده البخاري على بعض الناس) طبع مؤخراً بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر: كرد علي، المرجع السابق، ص٩.

(٢) يقصد فرديناد دوليسبس، ودوليسبس هذا لم يكن مهندساً إنما كان محتالاً من طـراز فريد، انظر (قناة السويـس ومشكلاتها المعاصرة): ١/ ١١٧، للدكتور مصطفى الحفناوي.

(٣) انظر: D. D. Commins, Islamic Reform Politics and Social Change in Late Ottoman Syria, New York, Oxfoed University Press, 1990, 40-41.

٤ ـ (تحفة النساك في أحكام السواك) طبع أيضاً بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

٥ ـ (إسعاف المريد في إقامة فرائض الدين).

٦ ـ (شرح العقيدة الطحاوية). وقد طُبع هذا الكتاب، ثُمَّ أعاد طبعه الأستاذ مطيع الحافظ ومحمد رياض المالح، وصدر عن دار الفكر بدمشق.

توفي الشيخ الميداني سنة (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) عن ستة وسبعين عاماً، ودفن بمقبرة (القُبيبات)، وقد أعقب ولده إسماعيل الذي خلَف والده بالفضيلة وإرشاد العامة[١].

٣ ـ تكوينه العلمي:

في الوقت الذي كان فيه الشيخ طاهر يتردّد على الشيخ الميداني، ويتعمق في دراسة علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية من فقهٍ وأصولٍ وتفسيرٍ وحديثٍ، وعقيدةٍ، ونحوٍ وصرفٍ وبلاغة.. كان يتردد على مدرسة حكومية ثانوية يتعرّف فيها على العلوم الطبيعية، والتاريخ، والجغرافية، والآثار، وقد تعلَّم شيئاً من الرياضيات والفيزياء على أيدي خريجي المدرسة الحربية في دمشق، وعكف أيضاً على دراسة اللغات الشرقية، فأتقن منها (فضلاً عن اللغتين التركية والفارسية التي كان ينظمُ بها كالعربية)، اللغات السريانية، والعبرية، والحبشية، والقبائلية البربرية لغة أهله الأصلية، واعتنى عناية خاصة بعلاقة اللغة العربية باللغات

---

(١) انظر في ترجمة الشيخ الميداني، الباني، تنوير البصائر، ص٧٣، ٧٤، طبعة أولى، وص١١٠ من الطبعة الثانية؛ الحصْني، منتخبات التواريخ لدمشق، ص٢ ـ ٦٧٠.

السامية، وتعلّم فوق ذلك اللغة الفرنسية، وتكلَّم بها، ولا شك أنَّ معرفته باللغة الفرنسية أعانته على الاتصال بالثقافة الغربية.

وتعلَّم كثيراً من الخطوط القديمة كالكوفي والمشجَّر والعبراني، ليتمكن من دراسة الآثار وقراءة المخطوطات القديمة[١].

وقد أجاد الأستاذ كرد علي في تصوير مبلغِ ثقافـةِ ومدى اتسـاعِ معارف شـيخه الجزائري حين قـال: «. . . فقد كان متضلّعـاً في علـوم الشريعة، وتاريخ الملل والنِّحل، منقطعَ القرين في تاريخ العرب والإسلام وتراجم رجاله ومناقشات علمائه ومناظرتهم وتآليفهم ومراميهم. . . وكان إماماً في علوم اللغة والأدب. . . وهو هكذا في علوم الشريعة، ولا سيما التفسير، والحديث، والأصول.

وكان يعرف السياسة، وما ينبغي لها، وحالة الغرب واجتماعه، والشرق وأممه وأمراضه معرفة أخصائي لا معرفة منتفة.

ولا يكاد جليسه يصدِّقُ إذا انكفأ الشيخ يتكلّم في هذه الموضوعات خصوصاً إذا كان غريباً، أنَّ محدثه شيخ من شيوخ المسلمين، يعيشُ في أمة قد لا تقيم وزناً لهذه المعارف. . .

بحق ما قيل في الشيخ: إنه مَعْلَمه (أنسيكلوبيدية) سيَّارة، أو خزانة علم متنقلة»[٢].

---

(١) انظر: محمد كرد علي، المعاصرون، دمشق، مجمع اللغة العربية: ١٤٠٠/ ١٩٨٠، ص٢٦٨؛ كنوز الأجداد، ص١٠؛ نقولا زيادة، أعلام عرب محدثون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع: ١١٤٥/ ١٩٩٤، ص١٤٨ ـ ١٤٩، -Commins, Isjamis Reform, 41

(٢) كرد علي، كنوز الأجداد، ص١١ ـ ١٣ ـ ١٥.

ومن الأمور العلمية التي تميّزَ الشيخ طاهر بها، هي إحاطتُه بمعرفة الكتب المدونة بالعربية، المطبوع منها والمخطوط، فقد كان ـ كما قال الباني ـ: «معجم كتب سيَّار، يضارع (كشف الظنون) أو (فهرست ابن النديم)»[١].

وقد اقتنى مكتبة نفيسة، بلغت بضعة آلاف مجلد، فيها الكثير من النوادر المخطوطة.

من كل ما سبق نرى أنَّ الشيخ الجزائري استوعبَ جملةَ معارف عصره القديمة والحديثة، وأعاد بذلك إلى الأذهان نماذج كبار علماء الإسلام، الذين استوعبوا ثقافات عصرهم، وتمثلوها بشكل كامل، من أمثال ابن خلدون الذي كان فقيهاً، وقاضياً، ومؤرخاً، وعالماً بالسياسة والاجتماع في الوقت نفسه.

٤ ـ صفاته وأخلاقه:

أ ـ حليته:

يحسُن بنا قبل أن نبدأ بالحديث عن شخصية الشيخ طاهر، أن نذكر حليته لتساعدنا على تصوّر الشيخ ونحن نتابع أخلاقه وصفاته.

كان الشيخ الجزائري حسنَ الطلعة، معتدلَ القامةِ والجسم، حنطيَّ اللونِ، واسع الجبهة، أسودَ الشعر والعينين، يضعُ عليهما منذ أربعين سنة منظرتين (نظَّارة)، ذا لحية كثيفة، عصبيَّ المزاج، سريع الحركة، واسع الخطوة، كان يحب المشي كثيراً، ولا يهنأ له بال، ولا يصفو له عيش إذا

---

(١) الباني، تنوير البصائر، ص٦٤.

لم يمشِ في اليوم مئات من الأمتار في المدينة وضواحيها، ولطالما قطع عشرات الأميال بين المدن والقرى والجبال والأودية سائراً على قدميه[1].

ب ـ تديّنه:

كان الشيخ معتصماً بدينه، متمسّكاً بأحكامه، لم يُعهد عليه منكر، ولم تؤثر عنه فاحشة، ولم يُعرف عنه أي تساهلٍ في تنفيذ أحكام الإسلام وشرائعه، فقد كان مواظباً على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وقد أدّى فريضة الحج.

وكان (رغم فقره وضيق ذات يده)، يُؤْثر الفقراء والمساكين على نفسه، ويتصدَّق عليهم في السر، وربما كان يبيت الليلةَ والليلتين جائعاً، لأنه تصدّقَ بكل ما لديه من طعام إلى جائع صادفه.

وكان حريصاً على إقامة شعائر الإسلام أنّى كان، وخصوصاً الصلاة، فقد كان محافظاً عليها في أول أوقاتها، مهما حالتْ دونه الموانع، فقد زار مرة أحد المعارض في باريس، فكان إذا أدركته الصلاة صلى في الحديقة العامة لا يبالي بانتقاد الناس هناك، ولا استغرابهم حركاته وسكناته[2].

جـ ـ حبه الشديد للعلم:

كان الشيخ طاهر لا يترك مزاولة العلم في كل وقت من أوقاته ما بين قراءةٍ، وتنقيح، وتنقيبٍ، وتأليفٍ، وكان إذا استحسن كتاباً طالعه عدة مرات، وكان فراشُه محاطاً بسور من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام.

---

(١) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص١٣٦، ١٣٩، ط١ وص١٦٤، ط٢؛ كرد علي، كنوز الأجداد.

(٢) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٦ ـ ١٧؛ الباني، تنوير البصائر، ص٩٨ ـ ٩٩، ط١، وص١٣٢، ط٢.

وكـان من عادة الشـيخ خلال الأربعين السـنة الأخيرة من حياتـه أن لا ينـام إلا إذا صلّى الصبح، يسـهر مع بعض أصحابه في أول الليل، ثم يعود إلى حجرته في مدرسـة (عبد الله باشا العظم) الكائنة في طريق بين البحرتين في دمشق القديمة، ليقرأ ويؤلف حتى يطلع الفجر[1].

وقد أُثـر عنه أخبار كثيرة في حبه للعلم، وتفانيـه فيه، لعل أطرفها ما رواه الأستاذ علي الطنطاوي، بقوله: «حدثني الشيخ قاسم القاسمي رحمه الله، أن أصحابه رأوا جبته قد أبلتها الأيام، وصيَّرتها شيئاً نُكراً، فاحتالوا عليه حتى اشترى جبةً جديدة، وأخفوا عنه القديمة، فاضْطَر إلى لبسها، ولم يكن أصعب عليه من لبس الجديد، وذهبوا به إلى مجلس في (دمَّر) في قصر الأمير عمر الجزائري، وكان المجلس حول بركة عظيمة، لها نافورة عالية مشـهورة، وكان فيه جلّة علماء ذلك المشـرب، الشـيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي وأمثالهما، وإذا بالشيخ ينزع الجبّة، ويقوم بها إلى البركة فينزل بها فيها: غمساً غمساً، ثم ينشرها على شجرة، حتى تجف وتنكمش وتقرمد فيلبسها، وسأله سائل منهم، فيقول:

ـ كانت جديدة شغلتني بالخوف عليها عن العلم، فالآن استرحتُ من التفكير فيها»[2].

د ـ زهده وعزته:

كـان لا يعرف الرفاهيـة والنعيم، ولا يبالي بطيب المطعم ولين

---

(١) انظر الباني، تنوير البصائر، ص١٣٦ ـ ١٣٧، ط١، وص١٦٢، ط٢؛ كرد علي، كنوز الأجداد، ص٢٥.

(٢) علي الطنطاوي، رجال من التاريخ، جدّة، دار المنارة، د. ت، ص٣٧٨.

المضجع، وفاخر الأثاث، وكان يرتدي الملابس البالية من غير تأنُّق ولا زينة، وكان جيوبه وأعبابه مليئةً على الدوام بالرسائل والدفاتر والجرائد والأوراق، كأنه مكتبة متنقلة حرصاً منه على اغتنام الوقت كلّما سنح له ذلك . . .

ولم يُعرف عنه أنه مالئ ظالماً لمأرب يبتغيه، ولم يصحب غنياً للانتفاع بغناه، وكان يُؤْثر الخمول وعدم الظهور، ولا تهمّه الشهرة من أي طريق أتت، لأنه كان يهزأ في باطنه بكل مظاهر الأبهة والرفعة[1].

هـ ـ شعوره بالآخرين:

كان الشيخ على درجة رفيعة من الإحساس بالآخرين، فكان يأرقُ لجاره أو صاحبه إذا علم أنّه أصيب بمصيبةٍ في ماله أو أهله. . وكان يهرعُ إلى مواساته بكل ما تملكه يداه. وأفضل مثال على رهافةِ حسِّ الشيخ الجزائري، وعُمْق مشاعره، ما رواه كرد علي من أنه «أراد الشيخ أحدُ أصحابه في القاهرة خلال الحرب العامة (الحرب العالمية الأولى) على أن يغيِّر جُبَّته، لأنها بليت بعضُ أطرافها، فسكت الشيخ عن إجابته، فلما ألحَّ عليه مرتين وثلاثاً أجابه:

ـ يا فلان! تريدني اقتناء جبة جديدة، وأهل الشام يموتون من الجوع»[2].

---

(١) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٧؛ الباني، تنوير البصائر، ص١٣٦، ١٣٧، ط١، وص١٦٢، ط٢.

(٢) كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٧ـ٢٣؛ الباني، تنوير البصائر، ص١٢٦، ط١، وص١٥٢، ط٢.

(٢)

حياته العامة ودوره العلمي والاجتماعي

١ ـ نشاطه العلمي والاجتماعي:

أ ـ في التدريس:

بدأ الشيخ طاهر حياته العملية معلّماً في المدرسة الظاهرية الابتدائية[١]، وهو في السادسة والعشرين من عمره، سنة (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٨م)، وانطلاقاً من هذه المدرسة، بدأ الشيخ طاهر يبثُّ أفكاره الداعية إلى الإصلاح، والأخذ بأسباب العلم كخيار لا بديل عنه إنهاض المجتمع الإسلامي المشدود إلى الخلف بأسافين الجهل والتخلف[٢].

ب ـ دوره في الجمعية الخيرية الإسلامية:

وفي هذا العام نفسه اجتمع الشيخ طاهر الجزائري والشيخ علاء

---

(١) بنى هذه المدرسة الملك السعيد ابن الظاهر ببرس سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١)، وجعلها دار حديث ومدرسةً، وقد درّس بها عبر تاريخها الطويل عدد كبير من العلماء منهم: اليونيني، وابن الزملكاني، والجمال القلانسي. انظر: بدران، (منادمة الأطلال)، ص١١٩.

(٢) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٠؛ عدنان الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٣٩١/ ١٩٧١، ص٩٤ ومابعدها.

الدين عابدين (ت١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٨م)[١] مع بهاء بك مكتوبجي الولاية (أي أمين السر العام للوالي)، واتفقت كلمتهم على تأسيس جميعة علمية اجتماعية، أطلقوا عليها اسم (الجمعية الخيرية الإسلامية) وقد انتظم في عداد أعضاء هذه الجمعية نخبة علماء وأعيان دمشق في ذلك الوقت، وقد تولَّى رئاستها الشيخ علاء الدين عابدين[٢].

انطلقت فكرة تأسيس هذه الجمعية من موقع الاستجابة لتحدِّي النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية الأجنبية، التي بدأت تتوالى على دمشق بدءاً من (إرسالية الآباء العازاريين) إلى دمشق سنة (١٧٥٥م)، والتي أسست مدرسة لها بعد عشرين سنة من وصولها[٣].

وقد حظيت الجمعية الخيرية بعد تأسيسها بتشجيع ودعم الوالي مِدْحت باشا ما سهل عليها مهمتها في الاستيلاء على بعض المدارس الموقوفة على طلب العلم، وعلى ملحقات بعض الجوامع والتكايا، التي كان يحتلها بعض المتنفِّذين، وذلك من أجل ترميمها، وتجهيزها لتكون مدارس حديثة على شاكلة مدارس الدولة العثمانية.

وقد تمكَّنت الجمعية بالفعل من افتتاح ثماني مدارس للذكور،

---

(١) هو ابن العلامة الشيخ محمد أمين عابدين صاحب الحاشية المعروفة بـ(حاشية ابن عابدين).

(٢) انظر: الحافظ وأباظة، تاريخ علماء دمشق، ص١، ٦٤.

(٣) انظر: وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية: ١٤٠٨/ ١٩٨٨، ص١٣٨ ـ ١٣٩؛ إسكندر لوقا، الحركة الأدبية في دمشق: ١٨٠٠/ ١٩١٨، دمشق، مطابع ألف باء ـ الأديب: ١٣٩٦/ ١٩٧٦، ص٤٨.

ومدرستين للإناث، إدراكاً منهم لضرورة تعليم النساء، وإفساح المجال أمامهنّ للمشاركة في بناء الأمة.

ففي ٥ شباط عام ١٨٧٩م تمَّ افتتاح المدرسة الأولى في بناء جامع (السباغورشية) وقد تمَّ انتساب (١١٦) تلميذاً إليها.

وفي ٢٥ شباط ١٨٧٩م تمَّ افتتاح المدرسة الثانية في بناء جامع (الكردي)، وقد انتسب إليها (١٠٦) تلاميذ.

وفي ٣ آذار ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (الحبال) التي انتسب إليها (١٠٠) تلميذاً.

وفي ٨ آذار ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (السباهية)، وقد انتسب إليها (٤٧) تلميذاً.

وفي ١٦ آذار ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (الشامية) وقد انتسب إليها ١٥٢ تلميذاً.

وفي ١٨ آذار ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (الخانكية)، وقد انتسب إليها (٩٧) تلميذاً.

وفي ٢٤ آذار ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (السليمانية) للبنات.

وفي ١ نيسان ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (الصالحية)، وقد انتسب إليها (٥١) تلميذاً.

وفي ١١ حزيران ١٨٧٩م، تمَّ افتتاح مدرسة (المغيريبة) للبنات.

وفي ١٦ حزيران ١٨٧٩م تمَّ افتتاح آخر مدرسة، وهي مدرسة (البزوري)[1].

---

(١) انظر: الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري، ص١٠٥ـ١٠٨.

جـ ـ الشيخ طاهر مفتش على المدارس الابتدائية:

تحولـت (الجمعيـة الخيريـة الإسـلامية) في نهاية عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٩م إلى (ديوان معارف)[1]، والذي أصبح جزءاً من الإدارة العثمانية في ولاية سورية، وعيَّن الشيخ طاهر مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية، وهنا ظهرت حيوية الشيخ البنَّاءة، إذ بدأ في هذه الفترة في تأليف عدد من كتب منهاج الصفوف الابتدائيـة في العلوم الدينيـة والعربية والريـاضية والطبيعية، ووضع برامج لها.

من مؤلفاتـه في هـذه المرحلـة: (الجواهـر الكلاميـة في العقيدة الإسلامية) و(مدخل الطلاب إلى فن الحسـاب)، (الفوائد الجسـام في معرفة خواص الأجسام)، (مد الراحة إلى أخذ المساحة)[2].

وقد أخذ الشيخ طاهر على نفسه أثناء تفتيشه على المدارس، تعليم المعلمين أصول التدريـس، وإعانتهم على حـل المشـاكل التي كانـت تواجههم أثناء تعليمهم، مما جعله صديقاً مقرَّباً من معلمي دمشق في ذلك العهد[3].

أما نشاطه الأهم في هذه الفترة فهو إقناعه الآباء بوجوب إرسـال أولادهم إلى المدارس ليتعلّموا، ولا يخفى ما في هذا الأمر من تنشيط

---

(١) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ١٠، يذكر إسكندر لوقا، (الحركة الأدبية في دمشق، ٤٩) أنَّ الشيخ محمود حمزة (١٣٠٥/ ١٨٨٧) كان أول رئيس لديوان المعارف، وأعانه في هذه المهمة نائباه الشيخان علاء الدين عابدين وطاهر الجزائري، وخمسة عشر عضواً آخرون.

(٢) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص١٥ ـ ١٦، ط١، وص٥٧ ـ ٥٨، ط٢.

(٣) انظر: كرد علي، المعاصرون، ص٣٦٩.

كبير للحركة التعليمية في سورية[1].

وقد سعى الشيخ طاهر في هذه الفترة أيضاً إلى إنشاء مطبعة حكومية، قامت بطبع المؤلفات العامة، والكتب المدرسية، وقد تولّت هذه المطبعة طباعة معظم كتب الشيخ طاهر المدرسية[2].

د ـ دوره في تأسيس المكتبات العامة:

في سنة (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م) تمكَّن الشيخ طاهر بمعاونة بعض أصدقائه، وبدعم مباشر من الوالي مدحت باشا، ثم مِنْ خَلْفه أحمد حمدي باشا، من جمع الكتب المخطوطة والنادرة في مكان واحد، فقد كانت هذه الكتب متفرقة في المساجد والزوايا، وفي بيوت الخاصَّة، يُخشى عليها من الضياع والتلف، بل كانت عُرضة للنهب والسرقة من قِبل سماسرة الكتب النادرة وتجارها، وعلى أيدي قناصل الدول الأجنبية، التي كانت تطمع باقتنائها[3].

وكان المكان الذي اختاره الشيخ طاهر لجمع هذه الكتب، هو المدرسة الظاهرية في محلّة باب البريد قرب الجامع الأموي، التي تحولت فيما بعد إلى المكتبة الظاهرية. وبذلك عرفت دمشق أولَ مكتبةٍ عامة في تاريخها الحديث.

---

(١) انظر: زيادة، أعلام محدثون، ص١٥٠.

(٢) انظر: عيسى إسكندر المعلوف، (الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي)، في المشرق: ١٨ (٢/ ١٩٢٠)، ص١٤٦.

(٣) انظر. ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ط١، دمشق، مكتبة أطلس: ١٣٨٥/ ١٩٦٥، ص٤٢٦.

وقد أولى الشيخ طاهر هذه المكتبة ـ بعد إنشائها ـ كل عنايته، خصوصاً في عهد ولاية صديقه وتلميذه الوالي العثماني عبد الرؤوف باشا، إذ كان يبتاع لها كل ما تقع يده عليه من نفائس الكتب والمخطوطات، وقد كان يدفع بنصحه أهل الخير إلى شراء الكتب، وإهدائها إلى المكتبة. وقد سعى إلى طبع (فهارس) لها، فاشتهرت، وقصدها العلماء، وطلاب العلم، والمستشرقين مطالعين ومستنسخين[1].

ولم يقتصر نشاط الشيخ طاهر في الدعوة إلى تأسيس المكتبات العامة على دمشق وحدها، بل تعدَّاها إلى غيرها من المدن مثل: حماة، حمص، طرابلس...

يحدثنا عن نشاطه هذا تلميذُه الباني بقوله: «وكثيراً ما كان يحضُّ أهل كل بلدة يغشاها من البلاد السورية على تأسيس المدارس والمكتبات. أذكر أني لقيته بمدينة حماة حينما كان قادماً من مصر[2] عن طريق طرابلس قبيل الحرب العامة بعد طول غيبته، فلم يكن له حديث إلا استنهاض همَّه الحكومة، وسراة حماة وأفاضلها، لإنشاء مكتبة، وكان يثير حميتَهم بالثناء على أهل طرابلس لأنهم لبَّوا نِداءه، ولم يتقاعسوا عن أداء هذا الواجب، فينبغي أن لا يكونوا أهل نشاطاً منهم، كما هو شأنه في الدعاية، فإنه يثير عواطف أقوام بالثناء على أقوام آخرين ليتأسَّوا بهم.

وكذلك عرَّج إلى حمص، واستنهض همة أهلها للغرض نفسه

---

(١) انظر الباني، تنوير البصائر، ص٢٤ـ٢٥، ط١، وص٦٥ـ٦٦، ط٢؛ كرد علي، كنوز الأجداد، ص١١؛ عبد القادر بدران، منادمة الأطلال، ص١١٩ـ١٢١.

(٢) سأتحدث عن رحلته إلى مصر في فقرة قادمة، ص٥٢.

بالأسلوب نفسه»[1].

وفي هذا العام نفسه ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م عهدت الحكومة العثمانيـة إلى الشيخ طاهر وظيفـةَ التفتيـش على خزائن الكتب في ولاية سورية ومُتَصرفيّة القدس.

وفي هذه الفترة ساعد الشيخ طاهر الشيخَ راغب الخالدي في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس، التي حوت فيما بعد مكتبات آل الخالدي، وقـد أعدَّ لهذه المكتبـة (فهرسـاً) خاصاً، طبع فيما بعد، مما سـهل على العلماء والدارسين معرفة كل محتويات هذه المكتبة النفيسة والنادرة[2].

وقد زار الشيخ جمال الدين القاسمي (ت١٩١٤) أثناء رحلتـه إلى بيت المقدس، المكتبـة الخالديـة، وقد عبَّر عن إعجابـه بهذه المكتبـة النفيسة والقائمين عليها بأبيات شعرية منها:

كُتْـبُ آلِ الخـالِـدي أَنْعِـمْ بهـا ... مَـوْرِداً للفَضْـلِ منْـه فـاَحتَسِـي
مَـن أتـى منهلهـا العَـذْبَ يُـرى ... مِنـهُ بـالـي فَهِمِـه فَضـلاً كُسِـي
هكـذا فَليـأتَسِـي مَـن كـان يَطـ ... ـلُـبُ مَجـداً هكـذا فليَـأتَسِـي
غَرسُوا في القُدس فخراً باهراً ... وَرِثُـوهُ عَـن كـرامِ المَغـرِس
فَجَـزاهُـمْ ربُّنَـا خيـرَ الجَـزَا ... ما سَرَى رَكبٌ لأرْضِ المقدِسِ[3]

---

(١) الباني، تنوير البصائر، ص٢٥ ـ ٢٦، ط ، وص٦٦ ـ ٦٧، ط٢.
(٢) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص٢٥، ط١، وص٦٦، ط٢؛ كرد علي، كنوز الأجداد، ص١١؛ المعلوف (الشيخ طاهر الجزائري)، ص١٤٦؛ زيادة أعلام العرب، ص١٥٠.
(٣) القاسمي، جمال الدين القاسمي، ص١١٤.

هـ ـ الشيخ طاهر يترك العمل الحكومي:

أقالت الحكومة العثمانية الشيخ طاهر من وظيفة التفتيش بالمدارس الابتدائية حوالي عام ١٨٨٦م تخوّفاً ـ كما يقول كرد علي ـ من «شدّته في بعثّ أفكاره بين الأساتيذ والتلاميذ، فزاد نشاطُ الشيخ، وكان يكنّي ويورّي، فغدا يعملُ علناً بخلاصِهِ من أسر الخدمة، وكان مدرِّساً في المدرسة الإعدادية بدمشق، وهو من جملة مؤسيسها، فاستقال، ثم عُرِضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي، فأبى، لأنه كان يعرف أنه لا بدَّ له في هذه المناصب من مشايعة الظلمة والجّهال»[١]. وظلّ حتى سفره إلى مصر عام (١٩٠٧) يدرّس، ويبحث، ويصنِّف، ويجوبُ المدن السورية داعياً إلى نشر العلم، وافتتاحِ المدارس والمكتبات، وباحثاً عن المخطوطات والكتب النادرة[٢].

وكان يعيش في هذه الفترة حياة زهدٍ وكفافٍ، ينفِقُ على نفسِه من بيع بعض كتبه، التي أنفقَ عمره في جمعها، غير أنّه كان لا يبيعها إلا إلى من اطمأنت نفسه إلى أنه يعرف قيمة هذه الكتب، ولن يفرِّط بها. وعلى سبيل المثال كان يبيعُ بعض الكتب إلى صديقه الشيخ جمال الدين القاسمي، فقد كتب القاسمي في إحدى مذكراته اليومية من عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) ما نصه: «وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر، واشتريت منه تراجم الشيعة والتبصرة بمجيدي»[٣].

---

(١) كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٦.
(٢) انظر: Commins, Islamic Reform, 91
(٣) القاسمي، جمال الدين القاسمي، ص٤٣٢.

٢ ـ حلقة الشيخ طاهر وأصدقاؤه وتلاميذه:

أ ـ حلقة الشيخ طاهر الفكرية:

لم يتبع الشيخ طاهر أسلوب علماء عصره في نشر العلم والدعوة إلى الإصلاح، أي إلقاء الدروس أو قراءة بعض الكتب الدينية في حلقات المساجد، أو في البيوت الخاصَّة، بل اعتمد أسلوب الحلقة الفكرية، أو لنقل الندوة الفكرية، التي كان يجتمع فيها بكبار علماء عصره، وأبرز مثقفيه، من الشباب الطامحين إلى الإصلاح، والمتطلّعين إلى العلم والمعرفة.

كان محور وهدف هذه الحلقة ـ التي عرفت فيما بعد بحلقة الشيخ طاهر الجزائري ـ هو تعلّم العلوم الحديثة، وتدارس التاريخ والتراث الفكري الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسنِ الأخلاق والقيمِ الإسلامية، والانفتاح على الغرب من خلال الأخذ بالصالح من مدينته الحديثة، ونبذ كل ما لا ينسجمُ مع الشريعة والعقيدة الإسلامية، وكانت تدورُ في هذه الحلقة أحاديث ومحاورات عن الوسائل التي يجب الأخذ بها لرفع مستوى التعليم والتفكير عند المسلمين في الدولة العثمانية.

وكان من أهم رواد هذه الحلقة التي ترأسها الشيخ طاهر الجزائري، علماء مصلحون، وكتّاب معروفون كالشيخ جمال الدين القاسمي، والمؤرخ الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ سليم البخاري، وقد التحق بهذه الحلقة عددٌ من الشباب من أمثال: الشيخ محمد علي مسلم، رفيق العظم، عثمان العظم، محمد كرد علي، عبد الحميد الزهراوي، محمد سعيد الباني، سليم الجزائري، محب الدين الخطيب، شكري العسلي، عبد الوهاب المليحي الإنكليزي، عبد الرحمن الشهبندر، جلال البخاري،

فارس الخوري، شكري القوتلي. . .

وكان لهذه الحلقة اجتماع دائم بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وأكثر ما يكون هذا الاجتماع في منزل رفيق العظم وأخيه عثمان، وقد استمرت هذه الحلقة بالانعقاد بعد سفر الشيخ طاهر الجزائري إلى مصر عام ١٩٠٧م(١).

ب ـ أصدقاء الشيخ طاهر وتلاميذه:

عقد الشيخ طاهر علاقات كبيرة مع عدد من سياسي وعلماء عصره، فقد كانت تربطه علاقات طيبة مع مدحت باشا، وأحمد حمدي باشا، وعبد الرؤوف باشا من ولاة سورية العثمانيين في عصره(٢).

كما ربطته علاقاتٌ صداقةٍ مع عدد من علماء دمشق من أمثال الشيوخ: عبد الرزاق البيطار، وجمال الدين القاسمي، وسليم البخاري، وأبو الخير عابدين، وعبد القادر بدران، الذين التفّوا حوله، وكانوا يرونه «أعلمهم، وأحكمهم وأبعدَهم نظراً، وأعمقهم غَوْراً»(٣).

---

(١) انظر: محب الدين الخطيب، محب الدين الخطيب: حياته بقلمه تروي أحداث عصر وحركة، دمشق، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، والطبعة الثانية ضمن كتاب (من سير الخالدين بأقلامهم)، التي أخرجها حسن السماحي سويدان من مطبوعات دار القاري بدمشق، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٨م، ص١٣، ١٤، ٢٦، ط١، وص٩٧، ٩٨، ط٢؛ كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، ص١٤٦، ١٤٧؛ عدنان الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري، ص٢٤، ٢٥، ١٢٠، ١٢٨، ١٣٠؛ Comminc, Islamic Reform, 92-94.

(٢) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص٢٤ ـ ٢٥، ط١، وص٦٥ ـ ٦٦، ط٢.

(٣) القاسمي، جمال الدين القاسمي، ص٤٤٠.

ولقد ارتبط الشيخ طاهر بعلاقة أبوة علمية وروحية بعدد من نوابغ الشباب آنذاك، أمثال: محمد سعيد الباني، محمد كرد علي، محب الدين الخطيب، وقد حدّثنا الأستاذ محمد كرد علي (أول رئيس لمجمع اللغة العربية في دمشق). عن علاقته بأستاذه الشيخ طاهر، بقول: «وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد، والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربّه»[1].

ولقد حدثنا الأستاذ محب الدين الخطيب في مذكراته عن عناية الشيخ طاهر به بعد وفاة والده وهو صغير: «ثم قيّضَ الله لهذا اليتيم الضعيف أستاذاً في أسمى مراتب الإنسانية، فأخذ بيده، وأحسن توجيهه في الطريق الذي هداه الله إليه في الحياة: الشيخ طاهر، هو الإنسان الكامل، هو علاّمة الشرق، والإمام الحكيم... فهو أبوه الروحي بعد والده الراحل»[2].

وأما الشيخ محمد سعيد الباني فقد بلغ من تأثُّره وإعجابه بالشيخ طاهر، أنْ صنّفَ كتاباً في سيرته بعد وفاته، قال فيه بعد أن ذكر ما ذكر من أخبار وآثاره وأفكاره: «وصفوة القول: إنّه كان من أعظم أركان النهضة العلمية والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصاً دمشق...»[3].

---

(١) شفيق جبري، محاضرات عن محمد كرد علي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة: ١٤٠٩/ ١٩٨٩، ص٣٢، ٣٣.

(٢) الخطيب، مذكرات محب الدين الخطيب، ص٦ ـ ٧، ط١، وص٩١، ط٢.

(٣) الباني، تنوير البصائر، ص٧٠، ط١، وص١٠٤، ط٢.

جـ ـ الشيخ طاهر والمستشرقون:

لقد وسَّع الشيخ طاهر دائرة علاقاته حتى شملت بعض المستشرقين الذين كانوا يسألونه عن بعض القضايا والمسائل التي تتعلّق بأبحاثهم، ودراستهم عن العالم والفكر الإسلامي، نظراً لتبّحره في دراسة التاريخ والحضارة والعلوم الإسلامية.

وكان بينه وبين بعضهم صداقة، يراسِلُهم ويراسلونه، من أمثال: غولدزيهر المجري، وهرتن الألماني أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (بن) في ألمانية، ومرغليوث وبراون الإنكليزيين، وكاير مونكانو الفرنسي، وأغناطيوس جويدي الإيطالي[1].

قد حدثنا كرد علي عن طبيعة علاقة الشيخ طاهر بالمستشرقين بقوله: «وكثيراً ما كانت صلاته بعلماء المشرقيات باعثة على تخفيف حملاتهم على الإسلام ولو قليلاً، وهذا ما كان يهتم له، ثم يهمه من أمر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا بنشرهم كتبنا النفيسة، وكان يعاونهم فيما هم بسبيله، إذا استرشدوه، ويفتيهم راضياً مختاراً إذا استفتوه، فيما يتعذر وقوفهم عليه»[2].

وخير دليل على المكانة التي بلغها الشيخ طاهر في نفوس بعض المستشرقين، وعلى المراسلات التي كانت تقوم بينه وبينهم، هو الرسالة التي أرسلها إليه المستشرق المجري أجناس غولدزيهر[3] بتاريخ

---

(١) الباني، تنوير البصائر، ص٥٠ ـ ٥٥، ط١، وص٨٧ ـ ٨٨، ط٢.

(٢) كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٨.

(٣) غولدزيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١)، مستشرق يهودي مجري، درس اللغات السامية في بودابست وليبزيغ وبرلين وليدن، انتخبته الحكومة المجرية للقيام برحلة إلى=

٥ ذي الحجة سنة ١٣١٧هـ.

نص الرسالة مع بعض الاختصار:

«سلام إلى صاحب الشرف الباذخ والفضل الشامخ، مَن هو المرجع للأماثل والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل، العالم العلامة الشيخ طاهر بن صالح المغربي الجزائري أدام الله تعالى فضله وزاد بقاءه آمين.

لِلّـهِ دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ ... يَوْماً بِجِلّقَ في الزَّمَانِ الأولِ[1]

. . . أرجو أنه ما انمحى من قلبكم خيالُ صاحبكم المجري، الذي كان يستجير بشامكم في سنة ١٢٩٠هـ مقتبساً من أنوار علمائها، وكثيراً ماتداول بين فضلائها وأدبائها، وصاحبكم يوماً فيوماً مستأنساً بمجاورتكم ومذاكرتكم، وكنا إذ ذاك - أنتم وعبدكم الكاتب - في عنفوان شبابنا، متبحرين في العلوم الشريفة، مستغرقين في بحور الآداب الظريفة. . . ومعتمداً على دوام ما جبل الله تعالى في قلوبنا من المحبة والمودة.

أتجسَّر يا أيها الشيخ العلامة أن أستفهمكم عن مسألة دمشقية لا أجد حلها في الكتب التي تحت تصرُّفي، مع شدة اشتياقي لإزالة شبهتي في تلك المادة، فذلك أني قرأت في (خلاصة) المُحبي و(سِلْك الدُرَر)[2] للمَرادي

= سورية (١٨٧٣م) فصحب فيها الشيخ طاهر وتتلمذ على يديه، ترجم إلى الألمانية كتاب الشيخ طاهر (توجيه النظر إلى أصول الأثر). انظر ترجمته في نجيب العقيقي، المستشرقون، ط٤، القاهرة، دار المعارف: ١٤٠١/ ١٩٨١، ٣، ص٤٠ـ٤١.

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه، انظر ديوانه: ١/ ٧٥، ت د. وليد عرفات.

(٢) خلاصة الأثر: ٢/ ٤٥٤؛ وسلك الدرر: ١/ ١١٢.

وغيرهما من الكتب التاريخية وطبقات علماء الإسلام أنّ الشيخ عبد القادر ابن محمد بن سوار المتوفى سنة ١٠١٤هـ بعد رجوعه من مصر إلى دمشق كان أول من أنشأ سنة ٩٤٠هـ بدعةً حسنةً نقلها من مصر، وهي إقامة الجماعات الذكرية المختصة للصلاة على النبي ﷺ وعرّفوا هذه الجماعات باسم (المحيا النبوي) لإحيائهم ليالي الأثانين والجمعات بتلك الأوراد والأذكار.

واستمر منصب شيخ المحيا ومقدَّم الجماعات المحيوية في نسله السوارية، إذا مات منهم أحد خَلَفَه ابنه في هذه الوظيفة الشريفة.

وكان المحل الخصوص لأداء المحيا الموصوف مشهد في شرقي الجامع الأموي، لقَّبوه مشهد المحيا، وجامع التيروزي بجوار قبر عاتكة رضي الله عنها خارج دمشق، وبعد ذلك فإني اشتاق كثيراً أن تفضلوني بإخباري عن المسائل الآتية أولاً فأولاً:

١ ـ هل تستمر الجماعات المذكورة في الشام ونواحيها إلى يومنا هذا؟

٢ ـ ما اسمها في اصطلاح الناس، أبقي عليها اسم المحيا، أم بدلوها باسم غير هذا؟

٣ ـ أين محل إقامة الجماعات المحيوية في دمشق، هل تستمر في المشاهد المذكورة فوقه إلى الآن، أم نقلت إلى غيرها من المشاهد؟

٤ ـ هل تتوارث وظيفة شيخ المحيا في العائلة السوارية كما كان في القرن الحادي والثاني عشر، أم اتسعت على غيرها من البيوت الفاضلة الشامية؟

تفضل عليّ يا أيها الشيخ بإفادة جواب شافٍ، مثاباً جميلَ الثواب

من الله الكريم الوهاب، وتخبروني أيضاً عن أحوالكم كلياتها وجزئياتها. وأما عبدكم فيشكر الله تعالى على ما أنعم عليه من خيره، صابراً على البلايا، إن الله مع الصابرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

د ـ الشيخ طاهر والشيخ جمال الدين القاسمي:

لعل علاقة الشيخ طاهر بالعلاّمة الشيخ جمال الدين القاسمي (ت١٣٣١/ ١٩١٤) كانت الأبرز والأهم من بين علاقاته جميعاً، لِما كان يتمتع به الرجلان من مكانة دينية وعلمية كبيرة، ولِما كانا يشتركان به من حسٍّ إصلاحي متوقِّد، دفع كلاًّ منهما نحو التعرف على الآخر، والاستعانة به لدفع عربة التجديد الديني والفكري في بلاد الشام إلى الأمام.

قبل أن أذكر شيئاً عن هذه العلاقة الفذَّة التي جمعت بين هذين المصلحين أرى من المناسب أن نتعرّف قليلاً على الشيخ جمال الدين القاسمي، وخير من يعرفنا عليه الإمام رشيد رضا الذي قال فيه: «هو علاّمة الشام، وبادرة الأيام، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السَّلف والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن، الفقيه الأصولي، المفسِّر المحدث، المتقن، صاحب التصانيف الممتعة والأبحاث المقنعة ولد سنة (١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٦م)، وتلقّى مبادئ العلوم العربية والشرعية عن والده، ثم تلقّى سائر العلوم عن العلامة الشيخ بكري العطار، وكان يحضر مجالس الأستاذ الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدِّد مذهب السلف في الشام، وقد استفاد من علمه وعقيده الأثرية، وهديهِ وأخلاقِه المرضيّة».

---

(١) محب الدين الخطيب، (كَولْد صِهَر والشيخ طاهر الجزائري)، في مجلة الأزهر، ٢٥ (٢/ ١٣٧٣/ ١٩٥٣)، ص١٧٣ـ١٧٤.

ثم قال: «إذا كان عمل القاسمي للإصلاح وتجديد علوم الدين صغيراً، فهو كبير جداً في بلاده وبين قومه، فما القول إذا كان عمله كبيراً في الواقع وقد عظم المطلوب وقل المساعد»[1].

من مؤلفات الشيخ القاسمي التي اشتهر أمرها، وعمَّت فائدتُها بين الناس:

١ - (محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم)، يقع في سبعة عشر مجلداً.

٢ - (إصلاح المساجد من البِدع والعوائد).

٣ - (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث).

٤ - (دلائل التوحيد).

٥ - (الفتوى في الإسلام).

٦ - (تاريخ الجهمية والمعتزلة).

٧ - (موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين)[2].

وهذه الكتب كلها مطبوعة.

والآن لنأت على ذكر شيء من العلاقة التي ربطت بين الشيخين الجزائري والقاسمي[3].

---

(١) الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، ص٢، ٧١٦ - ٧١٧.

(٢) انظر: القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ص٦٣٢ - ٦٨٨.

(٣) كل المعلومات التي سترد في هذه الفقرة مقتبسة من الكتاب الذي ألفه ظافر القاسمي حول والده تحت عنوان: (جمال الدين القاسمي وعصره)، ص٤٢٥ - ٤٤١.

حفظت لنا مذكّرات الشيخ جمال الدين القاسمي اليومية أطرافاً من علاقته بالشيخ طاهر، والذي يبدو من خلال هذه المذكرات أنّه لم تتوثق علاقة الشيخين إلا في مستهل عام (١٣٢٤ ـ ١٩٠٦) رغم أنّ تعارفهما قد تمَّ منذ زمن بعيد، ولا عجب في ذلك، فالعلاقة الراسخة لا تأتي ارتجالاً، وإنما تحتاجُ إلى زمن طويل حتى تنضج، وهذا ما حصل بين الشيخين، فبعد فترة طويلة من العلاقة العامة بدأت هذه العلاقة تتوثّق بسبب تردُّد الشيخ طاهر على صديقه القاسمي، واجتماعه به تقريباً كل يوم، من بداية عام ١٩٠٦م حتى سفر الجزائري إلى مصر عام ١٩٠٧م.

وغالباً ما كان الجزائري يزور القاسميَّ في بيته بعد العشاء لحضور درسِه في مصطلح الحديث أو تفسير القرآن الكريم، وكان لا يكتفي بالحضور، بل كان يشارِكُ في الدرس مشاركةً فعَّالة أيضاً، وقد عرف الشيخ القاسمي قيمةَ الشيخ الجزائري العلمية، حين قال في إحدى مذكراته: «وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر، واستمع لدرس مصطلح الحديث، ولم نزل نستفيدُ من حضوره، فهو الشيخ المفيد والمرقي الوحيد»[1]. وقد علَّق الأستاذ ظافر القاسمي على كلمات والده هذه بقوله:

«وإني لأعتقد أنَّ القاسمي كان يعني مايقول حين سجّل في مذكراته أنّ الجزائري هو (المرقي الوحيد) فما كان القاسمي يكتبُ ترجمةً للجزائري، ولا كان يجامِلُ صديقاً له، وإنما يكتب انطباعاته الصادقة حول مجالس الجزائري»[2].

وقد بلغ من عمق الصداقة بين الشيخين، أن شارك الجزائريُّ صديقَه

---

(١) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ص٤٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص٤٢٨.

القاسمي في تنقيح كتابه المعروف (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث)، وقد أشار القاسميُّ إلى ذلك بقوله: «وبعد العشاء زارنا الشيخ طاهر، ونقحنا بحضرته بعضَ مباحث من كتابي في المصطلح»[1].

وعند ما قرر الشيخ القاسمي السفر إلى بعلبك وبيروت وصيدا رافقه الشيخ طاهر في رحلته تلك إلى استغرقت ستة عشر يوماً.

وقد حرص القاسمي على تسجيل بعض آراء صديقه الجزائري في مذكراته تقديراً منه لهذه الآراء، مثل: «وبعد العشاء زارني الشيخ طاهر أفندي. . . وجرَّ البحث معه إلى بحث الشيخ محيي الدين (ابن عربي) في رسالته من إلزام العامة بالسؤال عن الدليل، قال: القَصْد تبصُّرهم بالشرع تبصُّراً ينقذهم من الجهالات المضلّة. وأما التفرقة والتباين بين الناس: عامة محضة، وعلماء صرف. فلم يُعهد به، ولا الدين يأمر به»[2].

وعندما نشر القاسمي أربع رسائل مخطوطة في علم أصول الفقه، منها رسالة في أصول الفقه عند الظاهرية، دافع عنه الجزائري بكل حماس أمام منتقديه الذين رأوا في هذه الرسالة خروجاً عن كتب المذاهب الفقهية الأربعة وأصولها.

وقد أبدى الشيخ القاسمي إعجابه بسعة اطلاع الشيخ طاهر على الكتب والمخطوطات عندما قال بعد أن أهداه الجزائري مرةً منثورات كتبٍ خطيةٍ منوعة، وكراريس فريدة: «. . . وبالجملة فالشيخ طاهر أعجوبةٌ في عصره في الذكاء، وفي التنقيب على الآثار العلمية، فهو

---

(١) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ص٤٢٨.
(٢) المرجع السابق، ص٤٢٩.

شيخها في عصره بلا ريب، بل وفيما قبل عصره»[١].

وبعد سفر الشيخ طاهر إلى مصر، لم تنقطع العلاقة بين الشيخين، بل استمرت لقاءاتُها عبر صفحات الرسائل التي تبادلاها، والتي عكست مقدار تعلُّق أحدهما بالآخر، ومدى حرصه على صحبته والاستفادة منه رغم البعد والفراق.

ونختم حديثنا عن علاقة الجزائري والقاسمي بما قاله الشيخ محمد رشيد رضا عندما وازن بين الرجلين في المقدمة التي قدَّم بها لكتاب القاسمي (قواعد التحديث): «والعلامتان الجزائري والقاسمي كانا سيَّين في سعة الاطلاع وحُسن الاختيار، إلا أنّ الجزائريَّ أكثرُ اطِّلاعاً على الكتب، وولوعاً بالاستقصاء والبحث، والقاسمي أشد تحرّياً للإصلاح، وعنايةً بما ينفع جماهير الناس»[٢].

رحم الله الشيخين الصديقين رحمة واسعة، فقد كانا ـ كما قال الأستاذ ظافر القاسمي: «من آياتِ الله على خَلْقه، وعاملاً كبيراً في اليقظة الفكرية والإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي»[٣].

٣ ـ أسفار الشيخ طاهر وإقامته في مصر:

أ ـ أسفار الشيخ طاهر:

أدرك الشيخ طاهر الجزائري أهميةَ الرحلة والأسفار، وما يعود على المرء منها من زيادةٍ في خبرته، وسَعةٍ في معارفه، واستنارةٍ في أفكاره، فجابَ القرى والمدن في سورية، ولبنان، وفلسطين، ومصر،

---

(١) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ، ص٤٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص٤٤١.
(٣) المرجع السابق نفسه.

والحجاز، وتركية، وفرنسة، باحثاً عن الفائدة، مفتِّشاً عن الكتب، حريصاً على لقاء العلماء المتعلمين، باذلاً في الوقت نفسِه كلَّ ما تحصَّلَ لديه من علمٍ ومعرفة وخبرة، داعياً إلى كل ما يؤمن به من قيم وأفكار تجديدية، محرِّضاً الناس في كل مكان حلَّ فيه على افتتاح المدارس وتأسيسِ المكتبات العامة[1].

وقد سجَّل الشيخ الجزائري معظم أخبار رحلاته وأسفاره في كناشاته التي ما زالت مخطوطةً حتى الآن في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق. أذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ (فوائد نحوية والرحلة إلى الحجاز) في (١٦) ورقة.

٢ ـ (تاريخ سفر المؤلف إلى الإسكندرية وما جرى معه) في (٥) ورقات.

٣ ـ (مسائل نحوية ورحلة المؤلف إلى القدس وبيرت وصيدا) في (٩) ورقات.

٤ ـ (دفتر خزائن الكتب في إستانبول وباريز وحلب وأياصوفية) في (٦٤) ورقة.

٥ ـ (الرحلة إلى طبرية) في (٢٣) ورقة.

٦ ـ (رحلة الجزائري إلى مصر) في (٤) ورقات[2].

ب ـ إقامته في مصر:

قرر الشيخ طاهر سنة (١٣٢٥/ ١٩٠٧) الهجرة إلى مصر، بعد أن

---

(١) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص٢٥، ٢٦، ١٢٦، ١٢٧، ط١، وص٦٦، ٦٧، ١٥٤، ط٢.

(٢) انظر: الفهارس البطاقية في قسم المخطوطات في مكتبة الأسد الوطنية.

تأكّد من تعذُّر استمرار إقامته في دمشق، فقد توجَّس في نفسه خيفةً عند ما فتشت السلطات العثمانية داره وغرفته في مدرسة عبد الله باشا العظم أكثر من مرّة، ونبشوا كتبه وأوراقه وهو غائبٌ يتجوّل في أنحاء سورية[١]، لأنّها كانت ترى في دعوة الشيخ إلى إدخال بعض الإصلاحات السياسية والإدارية على الدولة من أجل الحفاظ عليها، وضمان بقائها واستمرارها، أمراً يتنافى مع أمنها ومصالحها[٢].

قد سجَّل الشيخ جمال الدين القاسمي بعضَ تفاصيل هجرة الجزائري إلى مصر في إحدى مذكراته اليومية المؤرخة بـ(٢٧/ ٤/ ١٩٠٧م):

«وصل الخبر إلى الشام بوصولِ الشيخ طاهر أفندي الجزائري صديقنا إلى مصر من أيام، والظاهر أراد سكناها لِمَا جذبه من الشوق الشديد إليها، فباع في الصيف كثيراً من كتبه في داره في مدةٍ أربعة أشهر تدريجاً، واستبقى لنفسه ثلاثة صناديق، وأودعها أمانةً عند عثمان بك العظم، ثم باع سائر أمتعة بيتِه، وكلُّها أمتعةٌ رثَّة!.

وودَّع جميع أصحابه قبل السفر، وداع التكتُّمِ، بحيث لا يُشعرُ به، وكلّما سُئل عن سفره يشير إلى السواحل. فودّعنا مراراً، بل كان كلّ ليلةٍ عندي في السنة الماضية كلها. ثم ودّع الأميرَ عمر (ابن الأمير عبد القادر الجزائري) في دُمَّر، ونام عنده ليلتين، وكنّا معه، ثم ودَّع الشيخ أبا الخير أفندي عابدين في بعلبك، وكان قاضياً فيها، ثم عرّج إلى بيروت، ثم

---

(١) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٧؛ الباني، تنوير البصائر، ص١١٤، ط١، وص١٤٤، ط٢.

(٢) انظر: في ولاء الشيخ طاهر للدولة العثمانية وغَيرَتُه عليها؛ الباني، تنوير البصائر، ص١١٠ ـ ١١١، ط١، وص١٤١ ـ ١٤٢، ط٢.

صَيْدا، ثم يافا، ثم القدس، فأقام في كلّ هذه البلاد أسابيعَ يودِّعُ الجميع، ثم عاد إلى يافا، ومنها سافر إلى مصر. . . »[1].

وعندما وصل الشيخ إلى القاهرة، استأجر منزِلاً صغيراً في شارع (حوش قدم) بجوار (الغورية)، شاركه الإقامة فيه الشيخ مصطفى القباني وعبد الفتاح قتلان من أهل الشام[2].

وبعد أن استقرّ به المقام قليلاً، أخذ الشيخ يستأنِفُ سيرته الأولى في نشر العلم والدعوة إليه، وعندما طال مقامه في مصر، اضطر أن يشاركَ في كتابة بعض المقالات للصحف، خصوصاً لجريدة (المؤيَّد) لصاحبها الشيخ (علي يوسف) لقاءَ أجرٍ زهيدٍ ينفق منه على نفسه[3]. وكان عندما تضيقُ به الظروف المادية، وتنشِبُ الحاجةُ أظفارَها في رقبته، يُضطر إلى بيع بعض كتبه ومخطوطاته، لكنّه كان من حرصِه على هذه الكتب، وشعورِه بالمسؤولية نحوها كما قال صديقهُ العلامة محمود شكري الآلوسي: «يرضَى من دار الكتب المصرية مثلاً بنصف القيمة التى كان يمكِنُ أن يحصل عليها من مثل المتحف البريطاني ثمناً لكتابٍ من كتبه إيثاراً لبقاءِ ذلك الكتاب في الوطن الإسلاميِّ على انتقالِه إلى أوروبة. وكان يحرِصُ كلَّ الحرصِ على أن يكونَ الكتابُ المخطوطُ في مكتبةٍ عامةٍ كدارِ الكتب المصريّة أو إحدى الخزانتين التيمورية أو الزكية[4]، ولا تسمح نفسُه بانتقالِه إلى ملك الأفراد، لئلا يصيرَ إلى بلاد أخرى»[5].

---

(١) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ص٤٣٧ـ٤٣٨.
(٢) انظر الخطيب، مذكرات محب الدين الخطيب، ص٣٣، ط١، وص١١٩، ط٢.
(٣) انظر: عدنان الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري، ص١١٤.
(٤) خزانة أحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا.
(٥) محب الدين الخطيب، (زهد الشيخ طاهر الجزائري)، في مجلة الزهراء، ٣ (٧/ ١٣٤٥). ص٤٦٣.

وقد ارتبطَ الشيخ طاهر أثناء إقامته الطويلة في القاهرة التي استمرت زهاء ثلاث عشرة سنة بعلاقاتٍ كثيرة، كان أغلبها مع الشوام المهاجرين إلى مصر. من أمثال: محب الدين الخطيب، ومحمد كرد علي، ورفيق العظم، ومحمود الجزائري، وحقّي العظم، ورشيد رضا، والشيخ مصطفى القباني، وأحمد كرد علي، وصلاح الدين العظم، وحسن حمادة صاحب (مجلة الأحكام الشرعية).

وقد عَرَفَ فضلَه وقيمتَه العلمية أركانُ النهضة الفكرية في مصر آنذاك من أمثال: الشيخ علي يوسف، وأحمد زكي باشا، وأحمد تيمور باشا[1].

وقد عكف الشيخ طاهر أثناء إقامتِه في مصرَ على القراءة، والتأليفِ، فكتبَ عدداً من مؤلفاته القيّمة، مثل: (توجيه النظر إلى أصول الأثر)، و(التقريب لأصول التعريب)، و(البيان لبعض المباحث المتعلّقة بالقرآن)[2]، و(مختصر أدب الكاتب).

ومن أطراف أخبار الشيخ طاهر في مصر، والتي تدلُّ على إخلاصِه لنهج التجديد الذي أنفق حياتَه في سبيله، والتي تُشيرُ إلى المنزلةِ الرفيعةِ التي حازها هناك، قصة لقائه بوالي مصر عباس حلمي الثاني، والتي دوّنها في إحدى كُنّاشاته المخطوطة، وهذا نصُّها:

---

(١) انظر: محب الدين الخطيب، مذكرات محب الدين الخطيب، ص٣١ ـ ٣٣؛ القاسمي، جمال الدين القاسمي، ص٤٣٨، ٦٨٩ ـ ٦٩٠؛ الباني، تنوير البصائر، ص١١١، ط١، وص١٤٥، ط٢.

(٢) انظر: كرد علي، المعاصرون، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ الباني، تنوير البصائر، ص١٠٥؛ الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري، ص١١٤.

«في يوم الخميس ٧ صفر/ ١٣٢٨ اجتمعنا بحضرة الأمير الجليل نخبة الدولة العلوية بمصر عباس الثاني خديويها المبجَّل، وكان ذلك قُبيل المغرب، فاستقبلنا استقبالاً يدلُّ على شَهَامةٍ ومحبةٍ في العلم، وأجلسنا بلا فاصلٍ عنه، وأخبرنا أنه بلغتْهُ أخبارٌ كثيرة عنا، لا سيما من الشيخ (علي يوسف) المحب المخلص، ومن الدكتور (هيس) المحب لنا أيضاً، إلا أن سَفَر الحجاز عاقَ عن ذلك، والآن يعدُّ اجتماعنا به يوماً يُذكر، وله في ذلك الحظّ الأوفى، فقابلناه بما يليقُ بمقامه، إلا أنّ عبارتنا كانت قاصرةً، لكنها تدل على فرط إخلاص، ثم جرى البحث، فأشرتُ عليه أن يغتنم الفرص في إبراز آثار مهمة، وذكرنا من ذلك شيئين:

أحدهما: **تأسيس مدرسة للغة العربية**، تُقصدُ من كل جهة.

والثانية: **تأسيس دار للترجمة**، وعمل مطبعة لطبع ما يُترجم، وجعل مصححين للترجمة. فسُرَّ بذلك كثيراً، وأبنَّا له مقامه في النفوس، وأنْ لا يعبأ بالمشاغبين، ولو أردنا شرح ما جرى لطال، غير أنّي قلتُ لمَّا سُئلت عما يُنتقد على مصر؟ فقلت: شيئان:

أحدهما: **عدم إكمال الأعمال**.

والثاني: **احتقار الأشغال الجزئية**.

والأمور الكلية إنما تتم إذا أخذت أولاً من أقرب وجه»[1].

٤ ـ وفاة الشيخ طاهر الجزائري:

أثناء إقامة الشيخ طاهر في القاهرة، دخل الجيش العربي بقيادة

---

(١) طاهر الجزائري، الرحلة إلى مصر، مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم: ١١٧٢١، ورقة: ٤ ـ ٥.

الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق سنة ١٩١٨م، وأقامَ فيها أوّلَ حكومةٍ عربية، فقرّرَ الشيخ طاهر العودةَ إلى مَسْقطِ رأسه، لكنّه لم يتمكن من ذلك مباشرةً بسبب إصابته بمرض الربو، واشتداد وَطْأته عليه، ولم يستطعِ العودةَ إلى دمشق، إلا في النصف الثاني من عام ١٣٣٨/ ١٩١٩ .

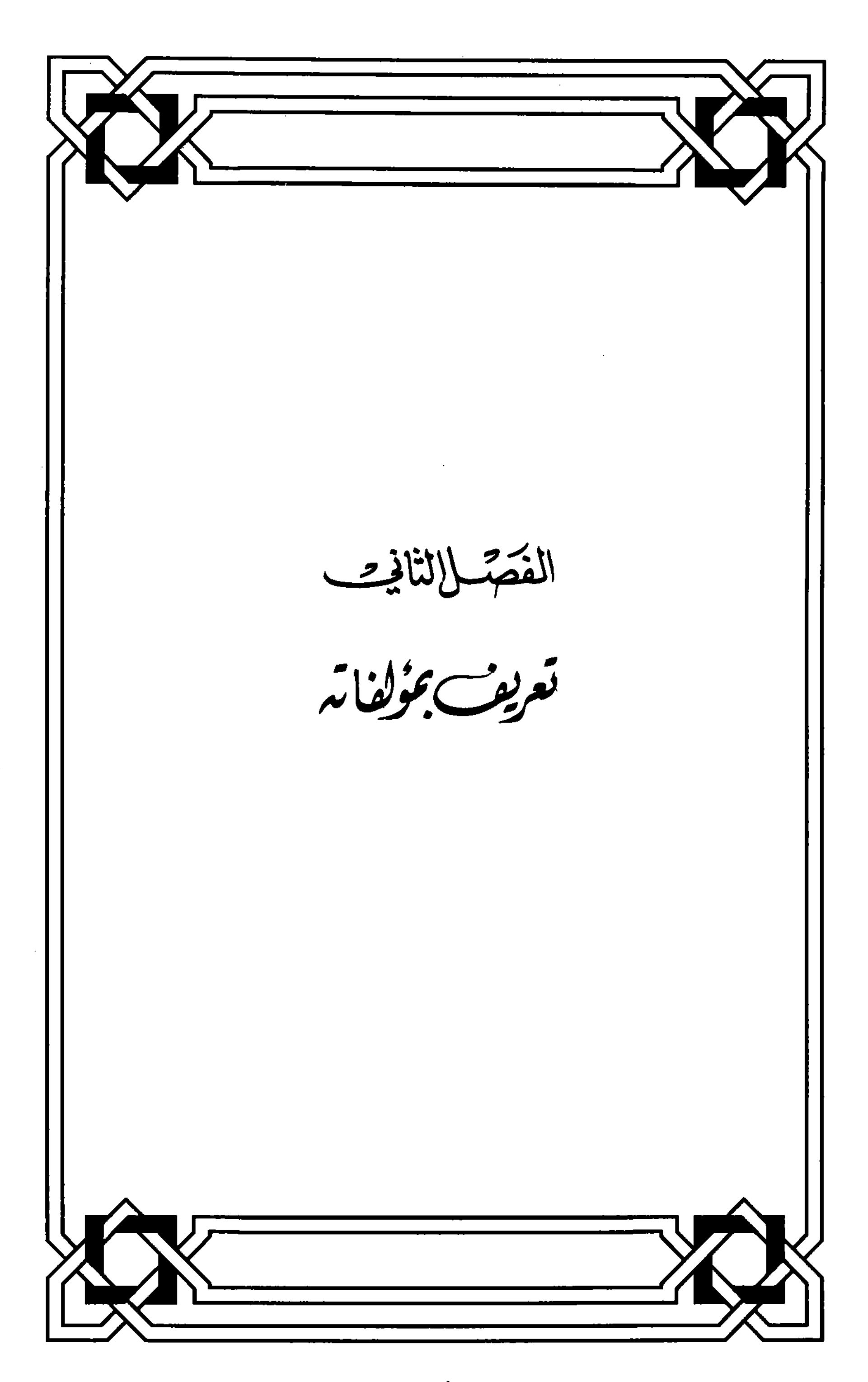
وقد عيّنته الحكومة العربية بعد عودتِه مديراً عاماً لدار الكتب الظاهرية التي أسَّسها منذ أربعين عاماً. وبتاريخ ٣٠ تموز سنة ١٩١٩م عقد أعضاء المجمع العلمي العربي برئاسة الأستاذ محمد كرد علي جلستهم الأولى في المدرسة العادلية الكبرى بدمشق ـ مقر المجمع آنذاك ـ وأجمعوا على ضمِّ الشيخ طاهر الجزائري إليهم عضواً عاملاً .

أمضى الشيخ طاهر أيامَه الأخيرة في دمشق، عاكفاً حسب عادته على المطالعة، والبحث، والدعوة إلى العلم، والالتزام بالشريعة نصّاً وروحاً، في الوقت الذي كان فيه مرضُه يزداد يوماً بعد يوم، حتى لبَّى نداء ربه ـ وكُتُب العلمِ محيطةٌ بفراشه ـ قُبيل ظهر يوم الإثنين الموافق لـ(١٤ ربيع الثاني ١٣٣٨هـ/ ٥، كانون الثاني ١٩٢٠). ودُفِنَ في سَفح جبل قاسيون حسب وصيّته. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن المسلمين خيرَ ما يُجزى به مصلح عن أمته[1] .

* * *

(١) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص١٤٠ ـ ١٤١، ط١، وص١٦٥ ـ ١٦٦، ط٢؛ كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٨؛ عدنان الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري، ص١١٥ ـ ١١٦؛ مجلة مجمع اللغة العربية: ١٣٨٩/ ١٩٦٩، ص٤٤ ـ ١٥٧ .





الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

نظرة عامة على مؤلفات الشيخ طاهر العلمية:

يمكننا تقسيم مؤلفات الشيخ طاهر إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: يعودُ إلى عهد فتوّته وشبابه، فقد اعتنى في هذه الفترة ـ بحكم الوظيفة التي شغلها مفتش عام المدارس الابتدائية في ولاية سورية ـ بتأليفِ كتبٍ مدرسيةٍ للأطفالِ والمبتدئين بشكل عام، حاولَ في هذه الكتب تقديم المعارف العلمية المتنوعة من دينية وطبيعية بأسلوبٍ سهلٍ ومبتكرٍ، خالٍ من الحَشو والتعقيد.

وقد أراد من وراءِ ذلك أن تكونَ هذه الكتب بمثابة الأسس التي تُبنى عليها قواعِدُ العلم، وترتفع قوائمه(١)، وأغلبُ الظن أنّه أرادَ أيضاً من وراءِ تصنيفه لكتب دينية طبيعية في وقت واحد، إلغاءَ التفرقةِ الجائرة المصطنعة التي كانت قائمةً حينئذٍ بين علوم الدين والدنيا، والتي لم يَحصد المسلمون منها إلا كل شرٍّ مستطير.

أما القسم الثاني: فهو مؤلفاته ومختصراته ونشراته العلمية

---

(١) انظر: الباني، تنوير البصائر، ص٥٧ ـ ٦١، ط١، وص٥٧ ـ ٥٨، ط٢.

وكُنّاشَاتِهِ[1]، وهي تعود في معظمها إلى عهد كهولته وشيخوخته.

والحقيقة أنّ الشيخ طاهر لم يدوِّن في هذه التصانيف آراءَه وأفكاره العلميـة، بل فضّل أن يختار للقارئ أحسـن وأنفع ما في كتب الشريعة واللغة، والأدب، والتاريخ من المسائل والمباحث الهامة. وأظنُّه قد فعلَ ذلك، لأنّه كان يرى أن استعداد أبناء الأمة للتأليف لم ينضج بعد، وأنّ المؤلِّفَ إذا لم يأتِ بأفكارٍ جديدة، وأبدعَ بأسلوبٍ جديد فالأحرى به أن يلتزمَ جانبَ التواضع والأمانـة العلميـة، ويكتفي بنقل ما يراه ضروريـاً ومفيداً للأمّة[2]. لذلك فقد اقتصر في مؤلفاته على ذكرِ أقوالِ العلماءِ القُدامى في المسائل العلمية، التي تعرَّض لها مع بعض التعليقات الضرورية الموجـزة، هذا بالإضافـة إلى الصياغـة المنظّمـة والمنسّـقة لكـل هـذه المعلومات[3].

وقد نشـر عدداً لا بـأسَ به من كتب التراث الإسـلامي التي أدرك أهميتها، وحاجةَ الأمة لها، مثل: (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) للراغب الأصفهاني.

---

(١) الكنانيش: جمع كُنّاش، وهذا اللفظ تعريب لكلمة (كناشا) السريانية، وتعني مجموعة أشياء، وعلى الأخص الأشياء المكتوبة، كرد علي، المعاصرون، ص٢٧٥.

(٢) والسبب الثاني هو إغراء الطلاب بقراءة كتب أسلافهم، واطّلاعهم على ما فيها من كنوز، وما كتب الشيخ طاهر إلاّ عيّنات منها.

(٣) انظر: عبد القادر المغربي (الظاهر من آثار الشيخ طاهر) أو (التذكرة الطاهرية) في مجلة: مجمع اللغة العربية، ٣(٥ـ٦/ ١٣٤٢/ ١٩٢٣)، ص١٧١ ـ ١٧٢؛ محمد سعيد الباني، تنوير البصائر، ص٦٤، ط١، وص١٠٦، ط٢؛ كرد علي، المعاصرون، ص٢٧٤.

واختصر بالإضافة إلى ذلك عدداً آخر من كتب التراث الهامة، كي يقرّبها من أفهام عامة الناس، ويجعلها في متناول أيديهم. قبل اختصاره لكتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة.

أما كُناشاته، فهي عبارة عن دفاتر وأوراق، كتبها في أوقاتٍ مختلفة وبمدن متعددة، وأودعها مسائل دينية ولغوية، وأدبية، وتاريخية متنوِّعة، أو وصفَ فيها بعضَ الكتب الهامة التي كان يصادفها في رحلاته، أو دوَّن فيها بعضَ أخبار هذه الرحلات . . .

كان الشيخ طاهر يُسمّي كنانيشه هذه، والتي بلغت بضعة عشر مجلداً (التذكرة الطاهرية)[1].

١ ـ مؤلفاته ومختصراته:

يمكننا توزيع مؤلفات ومختصرات الشيخ طاهر على العلوم الرئيسة التالية: العلوم الدينية، والعلوم اللغوية، والأدبية، والعلوم الطبيعية.

أـ المؤلفات الدينية:

١ ـ (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان. في علوم القرآن)[2]. طبع أول مرة بمطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٣٤هـ.

٢ ـ (توجيه النظر إلى أصول الأثر)[3]: في مصطلح الحديث، طبع

---

(١) انظر: عبد القادر المغربي، المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢) وسيأتي تعريف موجز بهذا الكتاب، ص٧٧ الذي قام بتحقيقه الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

(٣) وسيأتي تعريف موجز بكتاب (توجيه النظر)، ص٨٠ الذي قام بتحقيقه أيضاً=

في حياة مؤلفه وتحت إشرافه سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م بالمطبعة الجمّالية بالقاهرة.

٣ ـ (الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية). في العقيدة، ألَّفها الشيخ على طريقة السؤال والجواب لتقريب مسائل العقيدة إلى أذهان الطلاب المبتدئين، وقد طبعت عدة مرات ولما رأى الشيخ إقبال الطلاب عليها نفخها وألحق بها رسالة سمَّاه (الجوهرة الوسطى) من (الجواهر الكلامية)[1] تناسب طلاب المدارس العالية، أجودها التي طبعت في المطبعة الأهلية عام ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٠م.

٤ ـ (العقود اللآلي في الأسانيد العوالي) في مصطلح الحديث، طبع سنة ١٨٨٥م.

٥ ـ (مبتدأ الخبر في مبادئ علم الأثر) في مصطلح الحديث.

٦ ـ (مُنيةُ الأذكياء في قِصص الأنبياء) عرّبه عن اللغة التركية، وطبع بدمشق بمطبعة الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٨١م في ٢٣٩ صفحة.

ب ـ مؤلفاته ومختصراته اللغوية والأدبية:

١ ـ (إتمام الأُنس في حدود الفرس) في العروض والقوافي، طبع في دمشق.

٢ ـ (إرشاد الألبّاء إلى طريق تعليم ألف باء). ضمَّن الشيخ طاهر

= الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

(١) وقد أُعيد طبع هذه الرسالة بعنوان (الجوهرة في قواعد العقائد) بتحقيق حسن السماحي سويدان، ضمن سلسلة كتب قيّمة الصادرة عن دار القلم بدمشق.

هذا الكتاب مباحث لغوية عن حروف الهجاء وترتيبها ورسمها، وعلى الحركات والضوابط للمفردات والأعداد مع فوائد جمة في النطق والكتابة، وطبع في المطبعة الأهلية ببيروت، سنة ١٣٢١هـ في (١٤٤) صفحة.

٣ـ (أشهر الأمثال) في أمثال العرب[١].

٤ ـ (بديع التلخيص وتلخيص البديع): في علم البديع، طبع في المطبعة الحجرية في سورية سنة ١٢٩٦هـ ـ ١٨٧٨م، وهو أقدم مؤلفاته، وهذا الكتاب هو شرح الشيخ طاهر على بديعته التي أنشأها في مدح النبي ﷺ، وضمّنها المحسّنات البديعية لأسباب تعليمية.

٥ ـ (التسهيل المُجاز إلى فن المعمَّى والألغاز). طبع في مطبعة ولاية سورية، دمشق ١٣٠٣هـ في (١٢٨) صفحة.

٦ ـ (التقريب لأصول التعريب). وهو آخر مؤلفاته المطبوعة في حياته، فقد طبع في مصر في المكتبة السلفية سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م في (١٥٦) صفحة بيَّن طاهر الجزائري في هذا الكتاب بعض المعربات، والمسلك الذي يسلكه المعربون في تعريبها. ويعد هذا الكتاب من كتبه اللغوية المهمة[٢].

٧ ـ (تمهيد العُروض في فن العَروض) طُبعَ سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، في مطبعة ولاية سورية في (٥٦) صفحة.

---

(١) قام الدكتور مازن المبارك بالعناية بنشر هذا الكتاب، وكتب مقدمة طويلة له، مع تعليقات وحواشٍ كثيرة، وقد طبع هذا الكتاب في دمشق، دار الفكر ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) وللدكتور عز الدين بدوي النجار بحث موسَّع ودراسة متقنة عن كتاب (التعريب) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٣ الجزء ٤ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ بعنوان (من تاريخ التعريب والمعرَّب).

٨ ـ (حدائق الأفكار في رقائق الأشعار). مطبوع.

٩ ـ (الحكم المنثورة) مطبوع.

١٠ ـ (رسائل في علم الخط) مطبوع.

١١ ـ (شرح خطبة الكافي في اللغة) وهو بحث في أصول اللغة، نشأتها واشتقاقها، طُبع في القاهرة في مطبعة كردستان العلمية سنة ١٣٢٦هـ في (٨٠) صفحة. و(الكافي) وهو معجم في اللغة لم يكمله، ولم يطبع.

١٢ ـ (شرح ديوان خطب ابن نُباتة)[1]. طبع في بيروت، مطبعة جريدة بيروت ١٨٩٣م في (٥٢٨) صفحة.

١٣ ـ (عمدة المغرب وعدة المعرب) وهو قصيدة في الألفاظ النحوية، طبع طبعة حجرية في مطبعة ولاية سورية، دون تاريخ نشر في أربعين صفحة.

١٤ ـ (مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة) طُبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٣٨هـ، صدر بعد وفاته كما جاء في الكلمة التي كتبها في خاتمته تلميذ المؤلف القاضي الشيخ أحمد محمد شاكر محدث الديار المصرية.

١٥ ـ (مختصر البيان والتبيين للجاحظ) مطبوع.

١٦ ـ (مختصر أمثال الميداني) مطبوع.

---

(١) ابن نُباتة عبد الرحيم بن محمد الفارقي، أجمعوا على أنّ خطبه لم يُعمل مثلها في موضوعها (ت٣٧٤هـ).

١٧ ـ (المنتقى من الذخيرة لابن بسام)[1] مطبوع.

١٨ ـ (مراقي علم الأدب) وهو في ثلاثة أقسام:

القسم الأول في الحروف والشكل سماه: (إرشاد الألِبَّاء إلى طريق تعليم ألف باء). وقد طبعه طبعة مستقلة أشرتُ إلى ذلك سابقاً.

ـ القسم الثاني في التمرين وهو كتاب: (التمرين على البيان والتبيين)، طبع في بيروت ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٢م في (٨٨) صفحة.

ـ القسم الثالث في التجويد، وهو كتاب: (تدريب اللسان على تجويد البيان) طبع في المطبعة الأهلية بيروت سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٢م في (٢٣٩) صفحة.

١٩ ـ (ميزان الأفكار شرح معيار الأشعار) في العروض والقوافي. طبع في (لكناو) في الهند سنة ١٣٠٠هـ في (٢٢٢) صفحة.

جـ ـ مؤلفاته الطبيعية:

١ ـ (دائرة في معرفة الأوقات والأيام). وهو في علم الميقات. طبع حجر بدمشق، بدون تاريخ نشر.

٢ ـ (الفوائد الجِسام في الكلام على الأجسام) أو (الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام) طُبع في مطبعة معارف ولاية سورية، دمشق، سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م في (٥٤) صفحة.

---

(١) المقصود هو كتاب: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) أي جزيرة الأندلس، وهو من أفضل كتب التراجم في الأدب الأندلسي، وقد نشر بتحقيق الدكتور إحسان عباس.

٣ ـ (مَدُّ الرَّاحةِ لأخذ المِسَاحة) في الهندسة، طبع في مطبعة ولاية معارف سورية ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤ في (٢٠٨) صفحة.

٤ ـ (مدخل الطلاب إلى فن الحساب). طُبع ثلاث مرات لطلاب المدارس الابتدائية. في مطبعة معارف ولاية سورية الطبعة الثالثة سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥ في (٤٨) صفحة.

٢ ـ نشرات الشيخ طاهر الجزائري:

أحيا الشيخ طاهر بالنشر والطبع والتحقيق عشرات الكتب، عَرفنَا منها:

١ ـ (الأدب والمروءة) لصالح بن جُناح، مطبوع.

٢ ـ (الأدب الصغير) لابن المقفع، مطبوع.

٣ ـ (الأدب الكبير) لابن المقفع، مطبوع.

٤ ـ (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد) لابن ساعد الأنصاري. مطبوع.

٥ ـ (أمنية الألمعي ومنية المدعي) لابن الزبير الأسواني[1]، مطبوع.

٦ ـ (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) للراغب الأصفهاني[2]،

---

(١) هو أحمد بن علي بن الزبير، المعروف بالرشيد الأسواني (ت٥٦٣هـ)، وكتابه (أمنية الألمعي) هو مقالة قصد بها الفكاهة، وأملاها بلسان الظرف والدعابة، وذم فيها علوماً جمة. وقد قدَّم الشيخ طاهر هذه الرسالة بترجمة مؤلفها، وختمها بخاتمة في العلوم وأحكامها ومواضيعها وغاياتها.

(٢) الراغب الأصفهاني هو: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضَّل (ت٥٠٢هـ)=

طبع في بيروت سنة ١٤١٩هـ.

٧ ـ (حل المنظوم) للثعالبي، مطبوع.

٨ ـ (الحنين إلى الأوطان) للجاحظ. قامت بطبع هذا الكتاب المطبعة السلفية في القاهرة لصاحبها محب الدين الخطيب، سنة ١٣٥١هـ أما المطبعة الأولى منه فقد قامت بها مطبعة المنار في القاهرة سنة ١٩١٥م.

٩ ـ (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للراغب الأصفهاني. مطبوع.

١٠ ـ (رسائل عبد الحميد بن يحيى الكاتب)، نشر هذا الكتاب بالتعاون مع تلميذه محمد كرد علي، مطبوع.

١١ ـ (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) لابن حِبان البُستي، مطبوع.

١٢ ـ (الفوز الأصغر) لمسكويه، طُبع في بيروت سنة ١٣١٩هـ.

١٣ ـ (مداواة النفوس) لابن حزم، مطبوع.

٣ ـ مخطوطات الشيخ طاهر:

ترك الشيخ طاهر بعض التآليف المخطوطة، وهي موجودة اليوم في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق، أو في مكتبة السيد قصي بن محب الدين الخطيب في القاهرة.

١ ـ (أسنى المقاصد في علم العقائد) ٣٤ ورقة. موجود في مكتبة الأسد الوطنية تحت رقم (١١٢٣١).

= ومن كتبه المشهورة مفردات ألفاظ القرآن، ومحاضرات الأدباء ومحاولات البلغاء والشعراء.

٢ ـ (الإلمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام).

٣ ـ (التفسير الكبير). وهو ـ كما قال الشيخ عبد القادر المغربي ـ عبارة عن حواشٍ على (تفسير البيضاوي) في أربعة مجلدات. وقد عمد المرحوم إلى نسخة مطبوعة من البيضاوي فكتب على أطرافها هوامش وتعليقات، وأكثر ما كان يكتب هذه الهوامش والتعليقات في كراريس وقراطيس يدسُّها بين الصفحات المطبوعة. وقد أُثبتت في مكانها خيوط متينة، لكن الهوامش والتعاليق المذكورة ليست مربوطة بمواضعها من الآيات بواسطة أرقام وعلامات، ولذلك تقع صعوبة في تجريدها وجمعها بشكل تفسير مستقل.. ومن تصفَّح تلك التعليقات والشروح التي كتبها على تفسير البيضاوي أدرك لأول وهلة عظم فائدتها وحسن عائدتها[١].

٤ ـ (جلاء الطبع في معرفة مقاصد الشرع).

٥ ـ (الكافي في اللغة) وهو معجم لغوي بدأ به الشيخ طاهر لكنه لم يُكمله[٢].

---

(١) عبد القادر المغربي، مرجع سبق ذكره، ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) انظر في مؤلفات ومختصرات ونشرات ومخطوطات الشيخ طاهر، محمد كرد علي، المعاصرون، ص٢٧٤ ـ ٢٧٦؛ الباني، تنوير البصائر، ص١٥ ـ ٢٠، ط١، وص٥٧ ـ ٦٠، ١٠٥ ـ ١٠٦، ط٢؛ عيسى اسكندر المعلوف، في مجلة المشرق، ص١٤٦ ـ ١٤٨؛ يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة؛ مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ١/ ٦٨٨ ـ ٦٩١؛ إسماعيل البغدادي، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بغداد، مكتبة المثنى. د.ت، ص٤٣٢؛ الفهارس البطاقية في قسم المخطوطات في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

٤ ـ كنانيش الشيخ طاهر :

تبلغ (كنانيش) الشيخ طاهر المعروفة بـ(التذكرة الطاهرية) بضعة عشر مجلداً. سأكتفي بذكر بعضها، لنتعرف على تنوع وغنى وأهمية هذه (التذكرة) التي ما زالت حتى الآن تنتظر جهود الباحثين، ليقوموا بتحقيقها ونشرها نشراً علمياً، يساعد جمهور الدارسين والباحثين على الاستفادة من محتوياتها النفيسة.

١ ـ (فهرست كتب في تفسير القرآن الكريم) في (١٧) ورقة.

٢ ـ فهرست رسالة (الحدود في الأصول) لأبي الوليد الباجي في (٨) ورقات.

٣ ـ (رسالة في الافتاء وشروط المفتي) في (٢٤) ورقة.

٤ ـ مسائل علمية وحكاية الانتصار لابن تيمية. في (٥) ورقات.

٥ ـ دفتر فيه نقول عن عدة كتب مع ذكر سفر المؤلف إلى الحجاز. في (١٦) ورقة.

٦ ـ مسائل علمية وأبحاث من كتاب (الموافقات) لأبي إسحاق الشاطبي. في (٢٩) ورقة.

٧ ـ إثبات (تحريف التوراة والإنجيل) في (٩) أوراق.

٨ ـ اختيارات من كتاب (البدع التي يفعلها فقراء المتصوفة) لزرّوق الفاسي. في (١٤) ورقة.

٩ ـ أمثال علمية دفينة وبحث في التصوف. في (١٤) ورقة.

١٠ ـ منتخبات من (دمية القصر) للباخرزي. في (١٥) ورقة.

١١ ـ الرحلة إلى طبرية. في (٢٣) ورقة.

١٣ ـ الرحلة إلى الإسكندرية. في (٥) ورقات.

١٤ ـ دفتر فيه ترجمة لابن تيمية، وتراجم أخرى، ورسالة في الاسطرلاب، وأسماء بعض الكتب الموجودة في مكتبة محمد باشا كوپريلي بالآستانة. في (٦٩) ورقة.

١٥ ـ دفتر فيه ذكر الحوادث التاريخية الجارية في البلاد الشامية وغيرها من سنة ١٢٦٨هـ إلى سنة ١٢٩٠هـ؛ ومسائل أخرى... في (٣٣) ورقة.

١٦ ـ دفتر فيه تراجم لعلماء من القرن الثامن الهجري من اليمن، مأخوذة من كتاب (اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنيّة) لبدر الدين محمد بن إسماعيل الكبسي (١٣٠٨/ ١٨٩١) وفيه (مختصر في قواعد التصوف وأصوله على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة)، لأبي العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق. في (٢٠) ورقة.

١٧ ـ دفتر فيه تراجم لعلماء من القرن الثامن مأخوذ من كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) لابن حجر، وتراجم مأخوذة من تاريخ ابن قاضي شهبة لعلماء من القرن الرابع الهجري. في (٣٣) ورقة.

١٨ ـ دفتر فيه تراجم رجال من القرن الرابع والقرن الخامس، مرتبة على السنين من سنة ٣٠١هـ إلى ٤٥٠هـ منقولة من تاريخ ابن قاضي شهبة، وتراجم أخرى بعد هذا التاريخ. في (٢٠) ورقة.

١٩ ـ دفتر فيه أسماء كتب مختلفة ومتنوعة المواضيع، موجودة في مكتبات تركية وألمانية. في (٢١) ورقة.

٢٠ ـ دفتر فيه تراجم لعدد من الشعراء والأدباء من عصور مختلفة في (٢٥) ورقة.

٢١ ـ دفتر في اللغة والصرف. في (٢٤) ورقة.

٢٢ ـ دفتر في الفتاوى. في (١٦) ورقة.

٢٣ ـ دفتر في علوم الحديث. في (١٥٢) ورقة.

٢٤ ـ (حديقة الأذهان في حقيقة البيان) في (١٢) ورقة.

٢٥ ـ قصائد وبعض المقالات المنشورة في الصحف، في (١٤) ورقة.

٢٦ ـ مسائل دينية وتكذيب السحر. في (٣٦) ورقة.

٢٧ ـ الرد على الزيدية وبعض الفوائد والأشعار، في (١٤) ورقة.

٢٨ ـ قصائد علمية وتاريخية وأبيات فارسية في التصوف، في (٢٣) ورقة.

٢٩ ـ الرد على (نونية) ابن القيم، ورسائل أخرى. في (٢٤) ورقة.

٣٠ ـ (المنتقى من زهر الآداب) للحصري. في (٢٦) ورقة.

٣١ ـ مسائل دينية ورسائل لابن تيمية. في (٣٧) ورقة.

٣٢ ـ (رسائل للسيوطي). في (١٨) ورقة.

٣٣ ـ دفتر منوعات فيه خطبة ابن تيمية بعد خروجه من السجن، ورسالة ابن الجزري في ألغاز القرآن، وأسماء كتب الحلاج. في (٢١) ورقة.

٣٤ ـ تواريخ سياحية في بعض البلاد. في (٢٨) ورقة.

٣٥ ـ تاريخ هجرة صالح الجزائري، ومسائل أخرى. في (١٩) ورقة.

٣٦ ـ فوائد علمية ودينية ورسائل لابن عربي. في (٢٥) ورقة.

٣٧ ـ مجموع رسائل ابن تيمية والكتب التي نقل عنها في بديع القرآن. في (٢٠) ورقة.

٣٨ ـ دفتر فيه مؤلفات ابن تيمية، وتعريف ببعض الكتب الموجودة في مكتبة أياصوفية. في (٢٠) ورقة.

٣٩ ـ (العلم الشامخ وتكفير ابن عربي) في ٢٥ ورقة.

٤٠ ـ دفتر فيه ترجمة معروف الكرخي والسري السقطي، ومقتطفات من كتاب (سلوة العارفين وآنس المشتاقين) لأبي خلف محمد بن عبد الملك الطبري، وأخبار عن سفر المؤلف إلى الحجاز سنة ١٣٠٥هـ ومسائل أخرى في (٢٥) ورقة[١].

٥ ـ تعريف موجز بأهم مؤلفات الشيخ طاهر:

سبق أن أشرنا إلى أنه يمكننا تقسيم تراث الشيخ طاهر الفكري إلى قسمين رئيسين:

---

(١) انظر في كنانيش الشيخ طاهر: خالد الريّان، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية التاريخ وملحقاته، دمشق؛ مطبوعات مجمع اللغة العربية: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ٢٠، ٢٤٨ ـ ٢٧٦؛ صلاح محمد الخيمي ومطيع الحافظ؛ الفهرست العام لمخطوطات دار الكتب الظاهرية دمشق؛ مطبوعات مجمع اللغة العربية: ١٤٠٧/ ١٩٨٧، ص٥٦٣ ـ ٥٧٦؛ الفهارس البطاقية في قسم المخطوطات في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

القسم الأول: عبارة عن كتب ورسائل تعليمية مدرسية قام الشيخ بتأليفها إيماناً منه بأنّ النهضة الدينية والفكرية والاجتماعية. . يجب أن تبدأ بإعداد الناشئة، وتثقيفِ عقولهم، وتزويدهم بُلباب الثقافة الإسلامية الأصيلة، ومبادئ الثقافة العلمية والمعارف العصرية العامة. لذلك وجدنا عدداً لا بأس به من أعماله الفكرية كان ينحو هذا المنحى.

وأخصُّ بالذكر منها كتابه (الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية) الذي ألّفه لإيصال تصوُّر واضح ومبسط وسليم إلى أبناء الجيل الجديد، عن مبادئ العقيدة الإسلامية، التي تشكّل بالنسبة لكل مسلم القاعدة الضرورية التي يجب أن يبدأ انطلاقاً منها رحلته على طريق الإيمان والفكر والعلم، والتي بمقدار صلاحها وثباتها يكون صلاح المسلم في الحياة وفعاليته فيها، ونجاحه وسعادته في الدار الآخرة.

وأما القسم الآخر من تراث الشيخ طاهر فهو: ما تركه لنا من كتب علمية قيمة تعكس بشكل عام عمقَ ثقافته، وشمولَ معارفه من جهة، وتعكس من جهة أخرى أسلوبَه في الكتابة والتصنيف المرتِكز أساساً على الغوص وراء المعلومات القيمة، والذخائر العلمية النفسية، التي لا يهتدي إليها إلا كلُّ من له خبرة واسعة في دراسة التراث الإسلامي المطبوع والمخطوط على السواء.

وكان الشيخ رحمه الله يهدُف من وراء هذا الأسلوب والمنهج، تهيئة الأجواء العلمية المناسِبة لانطلاق حركة التأليف العلمية على أساس راسخ ومتين، يرتكز على أفضل ما تفتقت عنه قرائح علمائنا القدامى في ميادين الشريعة، واللغة والأدب، والتاريخ، والاجتماع. .

فالعالِم في نظره لا يُعد عالماً إلا إذا قتل القديمَ بحثاً ودراسةً، قبلَ

أن يُدلي بدلوه في الميدان العلمي الذي يشتغل فيه. وكذلك فإنّ العالِم الحقيقي لا يستطيع أن يُضيف شيئاً ذا بال في حقل اختصاصه إذا لم يستوعب كل المراحل العلمية، ويقف على أهم العطاءات العلمية، التي يتألف ويتكوّن منها العلم، الذي هيّأ نفسه لدراسته والاجتهاد فيه. وهكذا يمكننا أن نقولَ: إن استيعاب وهضم إنجازات السابقين والمتقدمين هو - في نظر الشيخ طاهر - الضمان الحقيقي لإضافات اللاحقين والمتأخرين.

وبناءً على هذه الرؤية وهذا التطور المنهجي، فقد اجتهد الشيخُ في سبيل تقديم أهم ما ظفربه بحثه وتنقيبه في دفائن التراث العربي الإسلامي إلى المسلمين في بعده من خلال مؤلفاته المطبوعة. المخطوطة وكنانيشه العلمية الوافرة العدد.

ومن فضل الله عزَّ وجلّ على المسلمين في الوقت الحاضر أنه قيَّض للعناية بأهم مؤلفات الشيخ طاهر (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) و(توجيه النظر إلى أصول الأثر)، عالِماً من أكابر علماء المسلمين في العصر الحديث، هو العلاَّمة المحدِّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، فقد خصَّ هذا العالم والباحث الدؤوب الكثيرَ من وقته وعلمه للعناية بهذين الكتابين، وإخراجهما على أفضل صورة علميَّة، وهو بهذا قد حفظ أهم جهود الشيخ طاهر العلمية من الضياع والإهمال، ومكَّن العلماء والباحثين وطلاب العلم من الاستفادة من الثروة العلمية الفذَّة التي أوْدَعَها الشيخ في كتابيه هذين.

وهكذا ساهم الشيخ أبو غدة مساهمة فعّالة في إعادة الاعتبار من جديد للشيخ طاهر، وأعاد تسليطَ الأضواء عليه بعد أن كادت أمواج النسيان أن تغمرَ سيرته وجهادَه واجتهادَه الفكري والعلمي المتميز.

وقد رأيتُ من واجبي في هذه الدراسة المتواضعة أن أعرِّف القراء الكرام بشكل موجز بهذين الكتابين (التبيان وتوجيه النظر) مستعيناً بما ذكره الشيخ أبو غدة عنهما.

أ ـ تعريف موجز بكتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان[1]

يحدثنا الشيخ أبو غدة عن هذا الكتاب فيقول:

«وقد أودعه زُبْدة ما وَقَف عليه من مباحث علوم القرآن الأصيلة، والموضوعات الهامة، والفرائد الدقيقة النادرة بعيداً عن الحشو والفضول، والمسائل المكرورة، التي اعتاد كثيرٌ من الكاتبين في علوم القرآن أن يملؤوا بها تآليفهم.

لقد انتخب العلامة الجزائري مباحثَ كتابه هذا انتخاب العالِم العارف الذوَّاقة، والمحقق المتقِن البصير، انتخبه من الكتب الكثيرة الوفيرة التي اطَّلعَ عليها مخطوطِها ومطبوعِها ـ وما أوسعَ اطلاعَه ومعرفتَه ـ ومخضها واصطفى خلاصة ما استحسنه منها، وكثيرٌ من تلك المخطوطات التي نقل منها حتى الآن غيرُ معروفة الأسماءِ والمسمَّيات للباحثين المعاصرين.

فلذا جاءت مباحثُ هذا الكتاب ـ على لطافة حجمه ـ في ذِروة

---

(١) يقصد الشيخ طاهر بعبارته (على طريق الإتقان) أنه سيقدِّم ويدرس مواضيع ومباحث كتابه بأسلوب جاد ومتقن. ولا يقصد بهذه العبارة أنه سيسير وفق منهج كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، ومن عادة الشيخ طاهر رحمه الله تعالى أن يضمن عباراته أسماء الكتب المشهورة في الفن الذي يكتب فيه.

المعرفة المطلوبة من دارسي القرآن الكريم، ونوَّع تلك المباحثَ فأدخل فيها من علم الحديث والنحو البلاغة والعربية وغيرِها ما رآه نفيساً وضرورياً متمماً للدراسة القرآنية، فأجادَ وأفاد وأحسن. . . ودوَّن المؤلِّف كلَّ ذلك بأسلوب علمي منظم مفصَّل، ولفظٍ سهل جَزْل فصيح. . .»[1].

من مباحث هذا الكتاب: في بيان المكي والمدني من القرآن، في كيفية نزول القرآن وما يتعلق بذلك، في نزول القرآن على سبعة أحرف وما يتعلق بذلك، في جمع القرآن وترتيبه، في القراءات السبع، في بيان تواتر القرآن، والقراءات، وما يتعلق بذلك.. وغيرها من المباحث العلمية المحققة والنفيسة. . .

نص مقتبس من كتاب (التبيان):

الفصل الخامس
في القراءات السبع

ليس المرادُ بالقراءات السبع الأحرُفَ السبعةَ التي وَرَد عن النبي ﷺ أنَّ القرآن أُنزِلَ عليها، وإنما المراد بها القراءاتُ المنقولة عن الأئمة السبعةِ المعروفين عند القرَّاء، وهي داخلة في الأحرف السبعةِ المذكورة.

ولم تكن القراءاتُ السبعُ متميزةً من غيرها، حتى قام الإمامُ أبو بكر أحمدُ بن موسى بن العباس بن مُجاهد، وكان على رأسِ الثلاثِ المئةِ ببغداد، فجمَعَ قراءات سبعةٍ من مشهوري أئمةِ الحَرَمين والعِراقيْن والشام،

---

(١) طاهر الجزائري، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان، تحقيق وعناية الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ط٣ حلب؛ مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٤١٢هـ، ص٦.

وهم نافع، وعبد الله بنُ كثير، وأبو عمْرو بنُ العلاء، وعبدُ الله بن عامر، وعاصم، وحمزة، وعلي الكسائي.

وقد توهَّم بعضُ الناس أنَّ قراءات السبعةِ هي الأحرُفُ السبعة، وليس الأمر كذلك، والذي أوقع هؤلاء في هذه الشبهة أنهم سمعوا أنَّ القرآن أُنزِلَ على سبعةِ أحرف، وسَمِعوا قراءاتِ السبعة، فظنوا أنَّ هذه السبعة هي تلك المشار إليها.

وقد لام كثيرٌ من العلماء المتقدمين ابنَ مجاهد على اختياره عددَ السبعة، لما فيه من الإيهام، وقالوا: ألا اقتصرَ على ما دُونَ هذا العَدَد أو زاد عليه؟ أو بيَّن مرادَهُ منه، ليَخْلُصَ من لا يعلمُ من هذه الشبهة.

قال أحمدُ بن عمار المَهْدَوِيّ: لقد فعلَ مُسَبِّعُ هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمرُ على العامة بإيهامه كلَّ من قَلَّ نظرُهُ: أنَّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر. وليته إذِ اقتصرَ نقَص عن السبعة أو زادَ ليُزيلَ الشبهة.

ووقع له أيضاً في اقتصارِه من رُواةِ كلِّ إمامٍ على راويين: أنه صار مَنْ سمع قراءةَ راوٍ ثالثٍ غيرهما أبطلها. وقد تكونُ أشهرَ وأصحَّ وأظهرَ، وربما بالغ مَن لا يفهم فخطَّأ أو كفَّر.

وقال الأستاذ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد القَرَّاب في (الشافي): التمسُّك بقراءة سبعةٍ من القرّاء دون غيرهم، ليس فيه أثرٌ ولا سُنَّةٌ، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين، لم يكن قرأ بأكثرَ من السبع، فصنَّف كتاباً وسمَّاه كتابَ السبعة، فانتشر ذلك في العامة، وتوهَّموا أنه لا تجوز الزيادةُ على ما ذُكرَ في ذلك الكتاب، لاشتهارِ ذكر مصنِّفه.

وقد صنَّف غيرُهُ كتباً في القراءات بعدَه، وذكر لكل إمام من هؤلاء

الأئمة رواياتٍ كثيرةٍ وأنواعاً من الاختلاف، ولم يقل أحدٌ: إنه لا تجوزُ القراءةُ بتلك الروايات من أجل أنها غيرُ مذكورة في كتاب ذلك المصنِّف، ولو كانت القراءةُ محصورةً بسبع رواياتٍ لسبعةٍ من القرَّاء، لوجَبَ أن لا تُؤخَذَ عن كل واحدٍ منهم إلا روايةٌ واحدة، وهذا لا قائلَ به.

وقال الإمام أبو محمد مكيٌّ: قد ذكر الناسُ من الأئمة في كتبهم من سبعين ممن هو أعلى رتبةً وأجلُّ قَدْراً من هؤلاء السبعة، على أنه قد ترك جماعـةٌ من العلماء في كتبهم في القراءاتِ ذكْـرُ بعض هؤلاء السـبعةِ واطِّرحهُم، قد ترك أبو حاتم وغيرُهُ ذِكْرَ حمزةَ والكسائي وابنِ عامر، وزادَ نحوَ عشرين رجلاً من الأئمة ممن هو فوق هؤلاء السبعة.

وكذلك زاد الطبريُّ في كتابه (كتاب القراءات) له على هؤلاء السبعة نحوَ خمسةَ عشرَ رجلاً. وكذلك فعل أبو عُبَيْد وإسماعيلُ القاضي. فكيف يجوزُ أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ هؤلاء السبعة المتأخرين قراءةُ كل واحد منهم أحدُ الحروفِ السبعةِ المنصوص عليها؟! هذا تخلُّفٌ عظيم! أكان ذلك بنصٍّ من النبيِّ ﷺ، أم كيف ذلـك؟ وكيف يكونُ ذلك والكسـائيُّ إنما لَحِـقَ بالسبعةِ بالأمسِ في أيام المأمون وغيره، وكان السابعُ يعقوبَ الحضرميَّ. فأثبتَ ابن مجاهد في سنة ثلاثمئة ونحوها الكسائيَّ في موضع يعقوب.

وقد نسـب بعض الناس إلى ابنِ مجاهد أنه كـان يتوهَّمُ أن هـذه القراءاتِ السبعَ هي الأحرُفُ السبعةُ المذكورة في الحديث، وهو خطأ. والغريبُ في ذلك الإقدام على نسبةِ مثلِ هذا الوَهَمِ إلى مثلِ هذا الإمام، وقد بالغَ صاحبُهُ أبو طاهر بنُ أبي هاشم في الرد على مَن نسبَ إليه ذلك.

ب ـ تعريف موجز بكتاب (توجيه النظر إلى أصول الأثر):

يحدثنا الشيخ أبو غدة عن سبب تأليف هذا الكتاب ـ نقلاً عن الشيخ الجزائري نفسه ـ:

«الداعي إلى تأليف هذا الكتاب ما وقع العزم عليه من تحرير الكلام في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام مما لخَّصه في كتابه الإمام عبد الملك ابن هشام، ليكون الناظرُ فيه وفيما شاكله على بصيرةٍ من أمره»[1].

ويعلِّق الشيخ أبو غدة على هذا السبب الذي دفع الشيخ إلى تصنيف هذا الكتاب بقوله: «وهذا مقصدٌ جليلٌ نبيل هامٌ جداً، فإن تنقية أخبار السيرة النبوية من الأقوال التالفة والروايات المنكرة، أمرٌ واجب، لم يتحقق حصولُه على الوجه التام المطلوب بعدُ، فجزى الله الشيخ خيراً على مقصِدِه، وعلى تمهيد الطريق إلى ذلك المقصِد، بتأليف هذا الكتاب النفيس في علم المصطلح الذي هو المعيار الدقيق لنقد الأخبار...»[2].

ويخبرنا الأستاذ أبو غدة عن شخصية الشيخ طاهر العلمية التي تبرز من خلال هذا الكتاب: «وإذا أدام القارئ النظر في الكتاب، بَدَتْ له شخصيّة مؤلفه رحمه الله تعالى عالِماً مُتقِناً، ومُحدِّثاً متمكناً، ونحَّاباً ذواقةً فَطِناً، وفقيهاً بارعاً، وأصولياً لامعاً، ومؤرِّخاً واعياً، ولُغوياً ضليعاً، وحَبراً بالقرآن وعلومه، وبالقراءات ووجوهها، وبالبلاغة وفنونها، وبالشعر ونقدِه وعَرُوضِهِ وأوزانِه، وبالوقفِ والابتداء وأنواعِه، وبالرسم للكتابة وقواعدِها..

ولمَّا كان المؤلف يتمتع بهذه المزايا العلمية، تجدُه إذا تكلَّم في فصل من فصول هذه العلوم تكلّم بمتانةٍ وبصارةٍ وأصالة، فلا تشهدُ في كتابه هذا ـ وسائر كتبه ـ الاجْترارَ والتكرار، وإعادة البديهيات والأولويات

---

(١) طاهر الجزائري، المصدر السابق، ص٧ـ٨.
(٢) المصدر السابق، ص٨.

فهـو من أهل النقد والتحقيق، ولهذا تـرى كلَّ ما يصدُرُ عنـه يقع موقعـه الرفيع في بابه. . . »[1].

ـ ويحدثنا الشيخ أبو غدة عن مزايا هذا الكتاب الكثيرة:

«إنه أوسعُ الكتب المحرَّرة المطوَّلة المؤلَّفة في علم المصطلح، التي أُلِّفت في القرن الرابع عشر، فالمؤلفُ نَخَل كتب المصطلح نَخلاً، واعتنى بأهم مباحثها، واستخلصها في كتابه، وعَطَف على كتب أصول الفقه، واستخلص منها أهمَ المباحث المتصلةِ بالمصطلح، وعَزَّزَ بعضها ببعض، ونَقَل النقولَ الناطقة في موضوعها، ومتَّنَ كثير من المباحث بنقولٍ فريدة من غير كتب المصطلح والأصول من كتب التفسير، والحديث والعقائد، والنِّحَل، والرجال، والتاريخ، واللغة، والنحو، لا يهتدي إلى معرفة تلك النقولِ الناضرةِ فيها إلا مِثلُه، فجلَّى الحقيقة العلمية التي يُريد تجليتَها حتى بدت ناصعةً واضحةً، أو ظاهرةً راجحة. . .

ومن مزايا هذا الكتاب الحفيلِ: أنَّ مؤلِّفه أوسعَ فيها بعض المباحث إيساعاً كبيراً، حتى صَلَح المبحث الواحد منها أن يكون رسالة مستقلة في موضوعه، لتكاملِهِ واستيفاء جوانبه الهامَّة، كمبحث (الحديث الصحيح) و(الحديث الحسن)و(الحديث الضعيف) و(الحديث المعلَّل) و(الحديث المتواتر)، وقد تفرَّد كتابُ المؤلِّف عن كتب المصطلح بذكره فيه (مبحث الحديث المتواتر) بتلك السَّعة والطول والتحرير، وكذلك مباحث (الرواية بالمعنى) و(التعارض والترجيح) وغيرها من الأبحاث النفيسة المتقنة.. وتميَّزَ كتابه أيضاً بمباحث هامة ليست من علم المصطلحِ،

---

(١) طاهر الجزائري، المصدر السابق، ص٧ـ٨.

ولكنها من تمام ثقافة قارئه ومُتقِنه، فأورد فيه المؤلِّفُ وأوسعَ أيضاً مبحث (الخط العربي)، و(علائمِ الفصْل)، و(الكلام على الحركات العربية) في الكلمة، و(الوقف والابتداء)، و(علائم الوقف)، و(السَّجْعِ)، و(الإدماج في الشعر). وغير هذا من المباحث المفيدة الهامة[1].

نص مُقتَبسٌ من كتاب (توجيه النظر إلى أصول الأثر):

يقول الشيخ طاهر الجزائري في بيان ربط السنة بالكتاب، وأنها تالية للقرآن واتفاقِ فرَق المسلمين على وجوب الأخذ بها، وقلة الاطمئنان لما ينقله بعض الفرق عن بعض لغلبة التعصب على كثيرٍ منهم:

«القرآن هو الإمام المبين، الذي لا تنزل بأحدٍ في الدين نازلة إلا وفيه الدليل على سبيل الهُدَى فيها، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

والسنة تاليةُ القرآنِ ومبيِّنةٌ لما فيه من إجمال ونحوه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال بعض الأئمة: جميع ما حَكَم به النبيُّ ﷺ فهو مما فَهِمه من القرآن. وقال بعضُ علماء الأصول: ما قالَ النبيُّ ﷺ من شيءٍ فهو في القرآن أو فيه أصلُهُ، قَرُب أو بَعُدَ، فَهِمَهُ من فَهِمَهُ، وعَمِه عنه من عَمِهَ، وكذا كل ما حَكَم به أو قضى به. وإنما يُدرك الطالبُ من ذلك بقدرِ اجتهاده وبذلِ وسعِهِ ومقدارِ فهمه.

---

(١) طاهر الجزائري، المصدر السابق، ص٨-٩.

وقال سـعيد بن جُبير: ما بَلَغني حديثٌ عن رسـول الله ﷺ على وجهه إلاّ وجَدتُ مصداقهُ في كتاب الله.

وقد اتفقتْ الفِرقُ المنتميةُ إلى الإسلام على وجوب الأخذ بالكتاب والسنة. ونُقِلَ عن الخوارج أنهم لا يأخذون من السنة بما يكون مخالفاً مخالفـةً ما لظاهرِ القرآن، كأن يكـونَ فيها تخصيصٌ لِما فيه من العموم ونحو ذلك، وإنما يأخذون منها بما كان فيه بيانٌ لِما أُجملَ في القرآن. وذلك كأوقات الصلاة وعَدد ركعاتِها ونحو ذلك.

وقد توقَّف بعضُ المحققين في هذا النقل، حيث إنَّ المُورِدِين له لم يذكروا أنهم نقلوه من كتبهم، على أنَّ الفِرقَ كلَّها قلَّما يُطمأنُّ لما يَنقلُهُ بعضهم عن بعض، لأنَّ كثيراً منهم قد يغلِبُ عليه التعصّب، فلا ينقل مذهب المخالفين له على وجهه، بل ربما كان جُلّ قصده إظهار الفرق بين الفِرَقِ، ولو كان بأمرٍ مختلِف.

ولذا قلَّ الاطمئنان إلى كثيرٍ مما يذكر في كتب المِلل والنِّحل، حتى إنَّ بعضً من ألَّفوا فيها مع كونهم في أنفسهم ثِقاتٍ، لمَّا اعتمدوا في بعض المواضع على ما نَقَلهُ غيرُهم، ممن كان من أهلِ التعصب، ولم يشعروا بحالِهم، وقعَ في كلامهم هناك زَلل، فينبغي الانتباه لمثل هذا الأمر»[1].

٦ ـ رسائل الشيخ طاهر

تُعدُّ رسائل الشيخ طاهر أفضل مصدر، يمكننا من خلاله التعرف على بعض أفكاره الخاصة، ذلك لأنه لم يترك لنا كتاباً مستقلاً، يمكننا عن طريقه التعرُّف على آرائه وأفكاره وأسلوبه في الإصلاح، والدعوة إليه

---

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر: ٢/ ٨٩٣ ـ ٨٩٤.

بشكل مباشر، بل بثَّ هذه الأفكار في أحاديثه الخاصة، ومحاوراته المستمرة مع أصدقائه وتلاميذه، وفي بعض الرسائل التي كان يرسل بها إلى من يهمه أمره من هؤلاء الأصدقاء والتلاميذ، أخصُّ بالذكر منهم صديقه الشيخ جمال الدين القاسمي، وتلميذَه الأستاذ محمد كرد علي، اللذين احتفظا ببعض رسائله إليهما.

تعكس رسائل الجزائري بوضوح شخصيته وأسلوبه في الحياة، فهو حريص على إيصال الأفكار والمعلومات بأسرع وأوْضح طريق ممكن، ولو على حساب شكل الرسالة وأسلوبها، فقد نراه أحياناً يعمد بعد الانتهاء من كتابة رسالة ما إلى وضع حاشية عليها، لأنه تذكر فكرة أو معلومة ما، ويرى أنّه من الضروري إثباتها، ولو أنَّ موضوع الرسالة لا يتناسب مع هذه الحاشية. ونراه أحياناً أخرى نتيجة حرصه الشديد على الرد مباشرة على كل من أرسل له رسالة يكتبُ رسالةً في بضعة أسطر قليلة، وأحياناً ينسى تاريخ رسائله. وقد أجاد الأستاذ ظافر القاسمي في وصف حقيقة رسائل الشيخ طاهر عندما قال:

«رسائل الجزائري غلبت فيها الفكرة على الأسلوب، وإذا كان الأسلوب جزلاً رائعاً، لم يرد فيه السجع إلا في النادر. وإذا كان قد عُرف عن الجزائري أنه أستاذ جيل كامل، وإذا كان القاسمي قد وصفه بأنه «المرقي الوحيد»، فهذه رسائله أبلغ دليل على عقله الجبَّار، الذي يولِّد الأفكار في كل حرف من حروفه.

اقرأ هذه الرسائل فسترى فيها الشيخ طاهراً بلحمه ودمه. أهدافه في الإصلاح، سعيه لنشر النافع من آثار السلف، حرصه على محو البدع، حرقته على نشر النور...»[1].

---

(١) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ص٥٠٩.

والآن لنعرض بعض هذه الرسائل القيمة، وسأبدأ بذكر رسالة طويلة كاملة بعث بها الشيخ طاهر إلى الشيخ القاسمي، لنتعرّف من خلالها على أسلوب الجزائري في كتابة الرسائل شكلاً ومضموناً. وبعد ذلك سأذكر بعض رسائله ـ أو مقتطفات منها ـ إلى كرد علي، والتي تعرّض فيها الشيخ طاهر إلى شرح بعض أفكاره الهامة بشكل أوضح.

أ ـ رسالة الجزائري إلى القاسمي:

«حضرة الصديق الأجل الفاضل المحقِّق لا زالَ ذا جِد وَجَدٍّ.

سلام عليكم. وبعد؛ فقد وصلني كتابُكم الكريم، فَسُررت به سروراً جمًّاً، وكنت عجبتُ لانقطاع رسائلكم عني منذ مدة، فأُخبرت أنَّ سفرَ الحجازِ هو العائق.

أما من جهتي فإنّه يسرني تواترُ رسائلكم عليَّ، وليس عليَّ كلفة في الجواب عن كلِّ ما يَرِدُ عليَّ منها، بل أجدُ نشاطاً حين الكتابة، لما أنّ القلم يجري كما شاء. نعم! أجدُ كلفة شديدة في مكاتبة من لا يُعلَمُ صفاؤه، خشيةَ أن يجد مدخلاً إلى شيء من مقاصده بطريق التمويه الذي صار أقصى ما ينحون نحوه.

وأما مكاتبة إخوان الصفاء، فلا ألذَّ منها عند من يعرِفُ قدرهم، وأنا ولله الحمد كما قال أبو الطيب:

خُلِقت ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا   لَفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكياً

وأمام من خصوص صاحبنا أمين أفندي الخانجي[1]، فإنّه قد

---

(١) كتبي، عالم بالمخطوطات وأماكن وجودها، ولد في حلب ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٥هـ،=

عَرَضتْ له مسألةٌ من نحو سنة، جعلته لا ينام إلا غراراً، وكنا متجاورين، وذلك أنه أسَّسَ شركة مهمَّة، تروقُ بحسب ظاهرها، واحتالوا حتى أدخلوه بها، ثم أوقفوها، فتأخرتْ أكثرُ أشغاله، وبقي نحو ستَّة أشهر، ثم دخل في المسألة بعض المصلحين فحلّوها، فخرج من هذا الشَّركِ سالماً، وأقبل على حاله الأولى، غير أنّه خشي أن لاتطبع له المطابع، فاشترى في هذا الشهر مطبعة، وشرعت في الطبع، وقد أخبرتُه حين وصول كتابكم بما ظهر لي أن أقولَه له، فأمر بعض من في المطبعة بأن يحضروا الرسائل من موضعها، ويشرعوا فيها بعد نحو أسبوعين، وسيرسِلُ ما وعدكم به، ولو في البريد، وبطلب أن ترسلوا له كتاب (تخريج أحاديث المنهاج) و(المختصر) ليلحقه بمنتهى ابن الحاجب.

بلّغوا تحياتنا لحضرة الأستاذ الأجل[1]، أدام الله نفعه، وإني لفي شوق إليه. ونسأل الله سبحانه أن يجمعنا على أحسن حال، وبلغوا تحياتنا وأشواقنا لحضرة خطيب القطرين رفيق بك[2] وأخيه الهمام الأمجد عثمان بك، وأرجو أن يرى الرفيق في هذه الرحلة ما يجعل له نشاطاً لتكميل ما كان يكتب. ودمتم بخير وعافية.

١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨. المحب

طاهر الجزائري

= وعمل كاتباً في ديوان ولايتها، وانتقل إلى القاهرة سنة ١٨٨٥هـ، وأنشأ فيها مكتبة الخانجي، نشر من نفائس الكتب ما ينوف الحصر، توفي في القاهرة سنة ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

(١) هو العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار.

(٢) هو رفيق العظم.

حاشية: خطر في بالي وأنا أحرر لكم الجواب أن ترسلوا رسائل الأصول ورسالة التوحيد وغيرها من مؤلفاتكم إلى ملك المغرب الأقصى مولاي عبد الحفيظ، وترسلوا له رسالة ليس فيها إفراطٌ ولا تفريط، تذكرون فيها إقباله على العلم والتأليف. وهذا شأن الملوك قديماً، الذين كانت لهم همم علياء، أن يجعلوا وقت راحتهم مصروفاً إلى ذلك، ومن غريب ما أخبرني بعض الغاسيين ممن يعرفه أنه طبع رسالة في الرد على البدع التي في المغرب، لكن قيل لي: إنّه لم ينشر منها غير نحو ثلاثين نسخة فرّقها بين العلماء وما كان ينبغي له ذلك، لأنّ أرباب البدع لهم همم لا نظيرَ لها في مصادمة من يريد هدم ما أسسوا. ويقال: إنّه ممن لا يرى جواز التقليد. لا سيّما لولي الأمر.

والسلام عليكم وعلى سائر الإخوان عوداً»[1].

ب ـ بعض رسائل الجزائري إلى كرد علي:

● موقف الشيخ طاهر من الاقتباس من الغرب:

«وبعد فقد وصلني كتابكم، مُنبئاً بعودتكم من بلاد أوروبة، فسررت بذلك سروراً شديداً، كنت أتمنى لكم هذه الرحلة من قديم، لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك. فإنّ الاقتباس من **الأمم المترقية، دليلُ على النباهة**، لا كما يظن البله. من أنّ في الاقتباس غضاضة، **ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الأمور النافعة**، لا كما يظنّه المتكايسون من أنّ الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء، حتى أدّاهم

---

(١) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي، ص٥١١ ـ ٥٢٤؛ وانظر بقية رسائل الجزائري إلى القاسمي، المرجع السابق، ٥١٠ ـ ٥٢١.

الأمر أن يقلّدوهم في الأمور التي يودّون هم أن يخلصوا منها. . . »[1].

هذه الرسالة مؤرخة بـ ١٩ صفر سنة ١٣٢٨هـ

● الشيخ طاهر يدعو إلى إصلاح العادات:

«ومما يهم الأمر فيه إصلاح العادات، فإن في الشرق كثيراً من العادات التي ينبغي إبطالها، كما أن فيه كثيراً من العادات التي ينبغي المحافظة عليها. غير أنّه لاينبغي أن يستعمل التبكيت في ذلك، بل يستعمل مجرد البيان، الدال على حسن الشيء أو قبحه. ولا يتيسر الإقدام على هذا الأمر، إلا لمن لا يهمه أمر المدح والذم العاجلين، بل يهمه حسن الأثر.

ومن العادات الرديئة جداً، أنّ الكاتب قد يمكنه أن يكتب في إصلاح عادة، لكنه يرى أن الكلام في ذلك يكفي فيه عشرة أسطر، فيرى أن الناس يزدرون بذلك، وينسبونه لقلة القدرة على الإنشاء، فيترك الكتابة فيه، أو يسهب إسهاباً لا داعي له، من سرد مقدماتٍ معلومةٍ مسلَّمة، لو تركها لكان أقرب إلى الفهم، وأبعدَ من الوهم، وما ذلك إلا من تأثير الحشوية[2] فيهم، وقولهم: إنّ الناس نسبوك لعدم الاقتدار على الكتابة. فينبغي أن يكون في المجلة، ولو مقدار صفحة تبحث في العادات على اختلاف أنواعها، وتعليم ذلك للبنين والبنات. هذا ومن جهة رأي الناس في حقكم، فإن النبهاء المنصفين منهم، يجعلونكم ممن ثبت في حين الشدة، ولا تعبؤوا بمن يلوم عن جهل وغباوة، فإنّ ذَمّ هؤلاء أقرب إلى المدح من ثنائهم»[3].

هذه الرسالة مؤرخة بـ غرة جمادى الأولى ١٣٣٧هـ

---

(١) كرد علي، كنوز الأجداد، ص٣٤.

(٢) الحشوية في نظر الجزائري هم الذين يتمسّكون بظواهر الأمور، ولا ينفذون إلى مقاصدها ومراميها، ويقفون في وجه كل تجديد وإصلاح.

(٣) كرد علي، كنوز الأجداد، ص٣٤.

ـ «وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم، في هذا الوقت الذي تنبه فيه الغافل، فضلاً عن غيره، موهمين الشفقة. وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم، ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع.

ولم يُرَ أحدٌ من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم.

وينبغي للجرائد المهمة أن تكثِرَ من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها، ليخلص منها من لم تستحكم فيه، ويتنبه الناسُ لأربابها، ليخلصوا من ضررهم.

وقد ذاكرني منذ ليلتين أحد نجباء الأبناء في هذه المسألة، وشكا كثيراً منها، وعجبَ لعدم اكتراث المصلحين لبيانها بياناً كافياً شافياً، فقلتُ له: المأمول أن يكون الأوان قد آن لإصلاح هذه العادة، التي تهبِطُ بالأمة إلى الدرك الأسفل. أصلح الله الأحوال»[1].

● الشيخ طاهر ينقد المدنية المادية:

«وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروّعات، زائداً في نشاطكم في إفادة الأمة، فإنها في احتياجٍ شديدٍ إلى من ينير لها الطريق الأقوم، من أرباب الوقوف والإخلاص، وأعظم ما تحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلّق بها، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالي الأمور، وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية، التي كان الغربيون قديماً يفتخرون بها. ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها، مما هو

---

(١) كرد علي، كنوز الأجداد، ص٣٦ـ٣٧.

مبني على مجرد مراعاة الأمور المادية دونَ غيرها، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة، وقد أشرتم بطرف خفي إلى ذلك في محاضرتكم التي ألقيتموها في مصر، حين فراركم من دمشق إليها، وقد صرّحنا بذلك في قصيدتنا البائية المطبوعة في الجزء الرابع من (منتخبات الجوائب). وقد كان أناسٌ يقرؤونها، ويعدونها من آراء حشوية الشرق، فما زالوا على هذا، حتى صرّح فلاسفة الغرب بذلك، ومما ينبغي **أن تحثّوا عليه تعلم صنعة ما، أي صنعة كانت، ولا يكون أحدٌ خالياً عنها**. وتجعل هذا مبدأ جديداً لهذا العصر **والتعويل على الرياضة الجسمانية**»[1].

● من آراء الشيخ طاهر التربوية:

ـ «وأؤكد في هذا الكتاب بأمور:

١ ـ إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية، ويمكن تجربة ذلك أولاً في مدرسة واحدة.

٢ ـ إدخال التربية العملية فيها، وذلك بتعويد التلاميذ على الصدق، وأن لا يتكلم في شيءٍ إلا بعد أن يختبره، فإنَّ الشرقيَّ اعتاد أن يدّعي كل شيء، وأن لا يقولَ في شيء لا أعلم، وهذا جعله لا شيء عند الغربي.

٣ ـ السعي في مدرسة للقراءات السبع، مثل ما كان من قبل، ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة، أو يخطب فيها، فإن مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير»[2].

---

(١) كرد علي، المرجع السابق، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧.

ـ «مما يهمُّ جداً إدخال مبادئ الصنائع في جميع المكاتب الابتدائية، وقد جُرّب ذلك في بعض المدن، فتبين أنَّ ذلك مما يعين على التحصيل أيضاً، والفائدة في ذلك مهمة.

ومما يهمُّ جداً إدخالُ التربية العملية في المدارس، لا سيما المدارس الابتدائية. ومن ذلك أن يعوَّد التلميذُ على أن لا يتكلّم بما لا يعلم، وأن يتفكّر قليلاً إذا سُئل عن شيء، لم يسبق به اختبار. وهذا أمرٌ ممكن قريبُ الأخذ، قد عمله أناس فنجحوا فيه؛ وأرجو أن لا تقرأ أفكاري على أناس من الحشوية أو الفلاسفة الخياليين، فإني أربأُ بها عنهم، نعم هؤلاء ينبغي أن يعرفوا ذلك بعد العمل به. ونصيحتي لكلِّ محبٍّ، أن لا يشغلَ بمثل هؤلاء، فإنه أنفع»[1].

في ٢١ ربيع الأول ١٣٣٧هـ

ـ «وأرجوا أن لا تقصِّروا في كتابة نبذ تتعلق بالتربية، وتدبير المنزل، وإصلاح العادات، وما أشبه ذلك. وأؤكد عليكم في **أن لا تشتغلوا بشيء من الجدل، فإنَّ الجدل يبطئ عن العمل**. وخذوا من عنان قلمكم، لئلا يجري إلا غير مدى، والاعتدال أقربُ لحصولِ ما يُبتغى»[2].

● الشيخ طاهر يدافع عن التاريخ الهجري واللغة العربية:

«عجبت لمن يسعَون في أن نهجر التاريخ الهجري، ويفاتحوننا في ذلك، كأنهم لا يعلمون أنَّا نعلم ما يرمون إليه عن بُعد، لكل أمة شعار، إذا تـركتْه طُمع فيها، واسـتضعف جانبها، وربّما صارت بعدُ مدمجـة في

---

(١) كرد علي، المرجع السابق، ص٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص٤٣.

غيرها. وقد سعى أناس منذ عهد بعيد، في أن يصفوا ما يقوي أمر الإسلام عموماً، والعربي خصوصاً، فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه، فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية، والسعي في تبديل خطها، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها، فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم، حتى أثّروا في كثير من أبناء جلدتنا، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء، والوقوف على أسرار الأمم، فكان ما كان مما هو معروف، ثم زاد الأمرُ، فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري، وساعدهم على ذلك (جبت) مصر، ففرحوا فرحاً لا مزيد عليه. وقال بعضهم: الآن شفينا الغليل من هذه الأمة، غير أنَّ كثيراً ممن انتبه لهذا الأمر سعى في إعادته على قدر الإمكان، فامتعض أولئك القوم، وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك»[1].

وهذه المسألة نظراً لتعلقها بتاريخ تأثر الشرق، لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يوماً. وليت شعري كيف يُلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري، فهل انقرض التاريخ الهجري؟ وهل يريدون أن ينقرضَ وأصحابُه أحياء؟

فإن قالوا: إنّ المقصود توحيد التاريخ في الأمم، وأوروبة هي القوية الآن.

قيل: إنّ أوروبة لها تاريخان، أحدُهما شرقي والآخر غربي، وكلٌّ يؤرِّخ به قوم منهم، فهل أوقف ذلك التجارة أو أثّر في المدنية شيئاً؟ ولِمَ لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم، لتتحد المقاييس في

---

(١) انظر: (تاريخ الدعوة إلى العامية وتاريخها في مصر) للدكتورة نفوسة زكريا، و(أباطيل وأسمار) لإمام العربية في هذا العصر الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى.

الأمم . وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ . وقد رأيتُهم يعتذرون عنه ، ويعدّون ذلك متانة في الأخلاق ، فانظر ما وصلنا إليه»[1] !! .

* * *

---

(١) كرد علي ، كنوز الأجداد ، ص٤٠ ـ ٤١ . وانظر بقية رسائل الجزائري إلى كرد علي ، المرجع السابق ، ص٣٢ـ٥٦ .

خاتمة

أ ـ الرؤية الإصلاحية للشيخ طاهر الجزائري:

أرى أنه من الضروري قبل أن أضع القلم، وأنتهي من الحديث عن الشيخ طاهر الجزائري. أن أتعرّض ولو بشيءٍ من الإيجاز إلى عناصر الرؤية التجديدية والخطة الفكرية التي كان يعتمدها، وهو يغذُّ السير في دروب الإصلاح والتجديد. لأنّه من دون التعرض لهذه القضية فلن يبدو لنا الشيخ طاهر أكثر من عالِم يبثُّ أفكاره كيفما اتفق، ويسعى سعيه دون رؤيةٍ واضحةٍ تحزِمُ جهوده، وتوجهها وتدفعُ بها نحو اتجاه محدَّد، وهو إن كان بهذه الصفة فلا يستحق أن يتميز عن معاصريه في شيء، إذ إنَّ العالِم لا يمتاز عن غيره من العلماء إلا إذا تسلَّح **برؤية ومشروع، واستهدف في حياته أهدافاً لا يرى لحياته وأعماله قيمةً إذا لم تخدمها، وتسعى به إلى الوصول إليها**. . وهذا هو بالضبط ما كان عليه حال الشيخ طاهر الجزائري. .

فقد كان رحمه الله يهدف من وراء كل جهده وأعماله ومؤلفاته إلى إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها الحضارية. وتسليحها بكل ما يلزمها، كي تستأنف دورها في رعاية أبنائها، وتوفير أسباب الترقي والتقدم لهم في جميع مجالات الحياة. ومن ثَمَّ القيام بدورها في الشهود الحضاري على العالم أجمع ائتماراً بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

اعتمد الشيخ الجزائري في دعوته إلى هذا الهدف طريق التربية والتعليم، لأنه كان يرى أن أزمة الأمة إنما أتتها عن طريق الجفاف والجمود الذي أصاب أفكارها. ولذلك كنا نراه يستفرغ كلّ جهده في الدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم كل العلم. فقد كان رحمه الله يدعو المسلمين من جهة إلى تلقُّفِ علومهم، والاعتصام بها، والعناية بتراثهم، ونشر كنوزه ودفائنه، **لتبقى العقيدة والشريعة والقيم الإسلامية ضوابط ومنارات يهتدون في كل الظروف والحالات**، ويستأنفون دورتهم الحضارية على أساسٍ مكين منها.

ومن جهةٍ أخرى كان يدعو المسلمين إلى أن يفتحوا قلوبهم وأفكارهم لعامة علوم الأوائل والأواخر، من الفلسفة والعلوم الطبيعية والاجتماعية على اختلاف أنواعها. لأنه كان يثق بأمته وعلومها، فلا يخشى عليها شيئاً، بل كان يرى أنه من حقها، بل من الواجب عليها أن تطَّلع على الكَسْب الحضاري الذي أنجزه الغرب في عصره، لتزدادَ قوةً على قوة، وتتسلَّح بكل أسباب البقاء والمَنَعة[1]. فقد كان رحمه الله يرى «أن العلم أنشودة المتعلم أينما وجده تعلمه، كما أنّ الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»[2].

وكان يقول لأصحابه: «تعلَّموا كلّ ما يتيسر لكم تعلُّمه، ولو لغة مالطة، فقد يجيء زمان تحتاجون إليها، وإيَّاكم أن تقولوا: إنّها لا تدخلُ في اختصاصنا، فالعلم كلّه نافع، والمرء يتعلّم ما حَسُنت به الحياة»[3].

---

(١) انظر: محمد كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٢؛ الباني، تنوير البصائر، ص٧٨، ط١، وص١١٥، ط٢.

(٢) محمد سعيد الباني، تنوير البصائر، ص٧٨، ط١، وص١١٥، ط٢.

(٣) محمد كرد علي، المذكرات، دمشق، مطبعة الترقي: ١٣٦٨/ ١٩، ٣/ ٧١٩.

وكان الشيخ طاهر الجزائري لا يؤمن بالعنف والإكراه طريقاً يمكن أن يُتوصَل به إلى إصلاح أمر الأمة وإنهاضها. بل ـ كما قلنا ـ بإعداد الشركة الفكرية عن طريق التربية والتعليم مهما طال الوقت، وامتد الزمان، فهو يرى أنَّ «**الإصلاح على اختلاف أنواعه لا بدَّ أن يكون على سبيل التدرج، وفقاً لمقتضى السنن الطبيعية، لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يلبث أن يرجع من حيث أتى**»[١].

وكان يقول رحمه الله: «إنّ أفضل الطرق في إنهاض شعب تثقيفه بثقافةِ العصر، وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة، ولكنها أمينةُ الغائلة، لا تخرجُ عن طريقة النشوء الطبيعي»[٢].

وقد لخّص لنا محمد كرد علي منهج شيخه الجزائري بقوله: «وخِطَتُه الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم، وبث المَلَكات الصحيحة في أهل الإسلام. وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول: إنَّ هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يُؤمن فيها العَثار، والسلامة محققة ثابتة»[٣].

ومن الطريف هنا أن نذكر أنَّ الأستاذ كرد علي وجد تشابهاً بين منهج الشيخ الجزائري هذا في الإصلاح ومنهج المهاتما غاندي في الدعوة إلى العلم ونبذ العنف، حيث قال:

«ويشبه الشيخ من كثير من الوجوه غاندي الفيلسوف الهندي المعاصر. وإن لم يكن له ما لهذا من الشجاعة، وذلك أنَّ الشيخ لا يحب الأذى ولا العنف، ويحاول إحياء كل ما هو آسيوي من اللغات والتقاليد،

---

(١) محمد سعيد الباني، تنوير البصائر، ص٧٩، ط١، وص١١٦، ط٢.

(٢) كرد علي، المذكرات: ٣/ ٧١٩.

(٣) كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٤.

وتعليم الناس الصنائع وعدم الغفلة عما هو عند الأمم الغربية من مقومات العلم. . . »[1].

وقد كان الشيخ طاهر الجزائري بالإضافة إلى دعوته إلى العلم ونبذ العنف، يدعو إلى الاجتهاد، ونبذ روح التعصب المذهبي. قال عنه محمد كرد علي: «هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبلياً ولا مالكياً ولا حنفياً بل مسلماً يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص، ويُحسِن ظنّه بأئمة المذاهب المعروفة، ويتجهم لمن يجرّأ على النيل من أحد العلماء عامةً، ويعمل بما صحّ له من الدليل في الكتاب والسنة، ولطالما أعطى الحق لعلماء الشيعة أو الإباضية أو المعتزلة في مسائل تفرَّدوا بها، وضيَّق فيها أهل السنة»[2].

وكان رحمه الله يدعو إلى بثّ روح الوحدة والتسامح بين فرقاء الأمة الواحدة، فقد كان يسعى جاهداً إلى تأليف قلوب أبناء الأمة على اختلاف أديانهم ليجمعهم على صعيد واحد تحقيقاً لمصلحة الأمة في مجموعها[3]. وكان يسترشِدُ في عمله هذا بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وكان يبذل الجهد المتواصل لإزالة الخلافات بين الفِرق الإسلامية، ليعود إلى الأمة تماسكُها ووَحدة وعيها، ولتتمكَن من حشد طاقاتها،

---

(١) محمد كرد علي، كنوز الأجداد، ص٢٨٠ ـ ٢٩٠.
(٢) المصدر السابق، ص١٣.
(٣) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٩؛ الباني، تنوير البصائر، ص٧٨ ـ ٧٩، ط١، وص١١٥ ـ ١١٦، ط٢.

ورصّها على طريق تحقيق مصالح المسلمين في مجموعهم[1]. وكان رائدُه في عمله هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقد اشتُهر عن الشيخ الجزائري قوله: «الحمد لله، لقد سَالمنا جميع الفِرق»[2].

من كل ما سبق يتبين لنا أن الشيخ طاهراً الجزائري كان ركناً من أركان التجديد الإسلامي الذي دشَّن في مستهل هذا القرن خطاب الدعوة إلى العلم والسِّلم كسبيلين وحيدين لاستنفاذ الأمة الإسلامية من براثن الجهل والتخلّف والانحطاط، حتى تصل آمنة مطمئنةً إلى مرقى الحضارة والتقدّم، وتستحق من جديد قول الله عز وجل في حقها:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ب ـ آراء بعض العلماء والكتّاب في الشيخ طاهر الجزائري:

قال الأستاذ محمد سعيد الباني:

«وخلاصة القول: إنّ فقيدنا رحمه الله تعالى كان من أعظم المنشِّطين، وأكبر الدعاة إلى كل ما يفضي إلى سعادة البشر سعادةً محضةً في الدارين من علم وعمل.

فكان يدعو المارقين إلى التدين، لكن بالدين الذي تركنا عليه الشارع ﷺ ونهج عليه سلفُ الأمة الصالح، ويتحاشى الجمود والتقليد

---

(١) انظر: كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٩ ومحمد سعيد الباني؛ تنوير البصائر، ص٧٨ـ٧٩، ط١، وص١١٥ـ١١٦، ط٢.

(٢) محمد كرد علي، المذكرات: ٣/ ٧٢١.

الأعمى. . يدعو إلى الأخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان أو أدبياً، ونبذ الضار منه الذي استطار شره وطبقت شروره الآفاق. . يدعو إلى الارتقاء الفكري بدراسة العلوم الاجتماعية والمدنية والسياسية. يدعو إلى تعلّم لغاتِ الأمم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة، لا للزهو والتفرنج، والاندماج بالأجنبي، وتقليده على العماء. . . »[1].

قال صديقه الأستاذ **أحمد زكي باشا**:

«كنت أرى فيه الأثرَ الباقي، والمثالَ الحي، والصورةَ الناطقةَ لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص، واستثارة خباياها وإبراز مفاخرها، هذا إلى التفاني في توسيع نطاقها. بقبول ما تجدَّد عند الأمم، التي تلقّت تراث العرب باليمين، والدعوة إلى الإقبال عليه مضموناً إلى آثار الأبناء ومأثر الأجداد. . . »[2].

قال الأستاذ **محمد كرد علي**:

«سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم، ولولا ما قام به من التذرّع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن»[3].

قال الأستاذ **علي الطنطاوي**:

«كان من المؤلفين المكثرين، إنْ عُدَّ المؤلفون المكثرون، وكان

---

(١) محمد سعيد الباني، تنوير البصائر، ص٦٥ـ٦٦، ط١، وص١٠٠ـ١٠١، ط٢.
(٢) محمد كرد علي، كنوز الأجداد، ص١٥/١٦.
(٣) محمد كرد علي، المذكرات، دمشق، مطبعة الترقي: ١٣٦٧/١٩٤٨، ٢، ص٦٤٣ـ٦٤٤.

من أئمة المربِّين، إنْ ذُكر المربُّون، وكان من رؤوس المصلحين، ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها، ونتفيأ ظلالها، ونعم بخيراتها. . »[1].

قال الدكتور **عدنان الخطيب**:

«إن تاريخ النهضة الحديثة في مصر والشام مرتبِطٌ أشدَّ الارتباط بحياة ثلاثة من عظماء الرجال، تدينُ البلادُ العربية لهم، كما تدينُ البلاد الإسلامية بإيقاد أول شعلة أيقظتْ العربَ والمسلمين من سباتهم. . هؤلاء الثلاثة هم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطاهر الجزائري»[2].

قال الدكتور **مازن المبارك**:

«لقد كان الشيخ طاهر شعلة نشاط عربي وإسلامي، ثقافي وفكري وإصلاحي، وكأن واحداً من أكبر رواد النهضة أثراً في بلاد الشام»[3].

قال الأستاذ **سامي الكيالي**:

«استطاع هذا المصلح أن يخلقَ مدرسةً في دمشق تقول برأيه، وتسير وفق نهجه، وهي مدرسة ضمّت الكثيرَ من الأعلام، والتي مهَّدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية، تلك النهضة التي تمتع بثمراتها أبناء هذا الجيل»[4].

---

(١) علي الطنطاوي، رجال من التاريخ، ص٣٨٠.
(٢) عدنان الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري، ص١١٩.
(٣) مازن المبارك، الشيخ طاهر الجزائري، مقال سبق ذكره، ص١٩٥.
(٤) سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية: ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠، ط٢، =

قال الأستاذ نجاة قصاب حسن:

«والأهم في حياته أنه دائرة معارف كاملة تجمعت في عقل إنسان واحد، فكان مطلعاً على السياسة، ومصلحاً حكيماً، لم يدّخر وسعاً في بث العلوم والمعارف، ومجتهداً في الدين بما يوافق روحَ العصر... ولا أرى أنَّ معرفة أيٍّ من مثقفينا بتاريخ الثقافة في هذا القطر (السوري) تكتِملُ إنْ لم تبدأ من طاهر الجزائري وأمثاله من العلماء المصلحين»[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

= القاهرة؛ دار المعارف: ٢٩٨٠م، ١٠٢.

(١) نجاة قصاب حسن: (طاهر الجزائري)، جريدة الثورة السورية، عدد ٨١٥٩، ١٨/١/١٩٩٠م.

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ المخطوطات:

ـ الجزائري، طاهر، الرحلة إلى مصر، مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم المخطوط (١١٧٢١).

٢ ـ المؤلفات بالعربية:

ـ الباني، محمد سعيد، تنوير البصائر سيرة الشيخ طاهر، دمشق، مطبعة الحكومة العربية السورية، ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م، ثم نشر ثانيةً ضمن كتاب (علماء الشام كما عرفتهم) لمحمد سعيد الباني، عني بنشره حسن السماحي سويدان، هو من دار القادري بدمشق، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، وإليه أشير بـ ط٢.

ـ بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ـ البغدادي. إسماعيل، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بغداد، مكتبة المثنى، دون تاريخ نشر.

ـ جبري، شفيق، محاضرات عن محمد كرد علي، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ـ الحافظ، محمد مطيع، أباظة، نزار، تاريخ علماء دمشق في

القرن الرابع عشر الهجري، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦م.

ـ الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق، الطبعة الأولى، بيروت. دار الآفاق الجديدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ـ حنا، عبد الله، حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الطبعة الأولى، بيروت دار ابن خلدون ١٩٨٥.

ـ الخطيب، عدنان، الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١م.

ـ الخطيب، محب الدين، محب الدين الخطيب حياته بقلمه تروي أحداث عصر وحركة، دمشق، مطبوعات جمعة التمدن الإسلامي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، وقد أعيد نشرها محققة ضمن كتاب (من سير الخالدين بأقلامهم: شوقي الإبراهيمي ـ محب الدين الخطيب)، بتحقيق حسن السماحي سويدان، الطبعة الأولى دار القادري بدمشق، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

ـ الخيمي، صلاح محمد ومطيع الحافظ، الفهرست العام المخطوطات دار الكتب الظاهرية، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ـ الريَّان، خالد، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية والتاريخ وملحقاته، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

ـ الزركلي، خير الدين الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، ط٦ ببيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.

ـ زيادة، نقولا، أعلام عرب مُحدَثون، من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٤٠م.

ـ سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ نشر.

ـ الشطي، محمد جميل، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٧٣م.

ـ الطنطاوي، علي، رجال من التاريخ، جدة، دار المنارة، دون تاريخ نشر.

ـ العقيقي، نجيب، المستشرقون، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ نشر.

ـ القاسمي، ظافر، جمال الدين القاسمي وعصره، الطبعة الأولى، دمشق، مكتبة أطلس، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ـ كرد علي، محمد، كنوز الأجداد، الطبعة الثانية، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ـ نفسه، المذكرات، الجزء الثالث، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

ـ نفسه، المعاصرون، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٨٠م.

ـ كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي (من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام)، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨.

- الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سورية: ١٨٥٠ - ١٩٥٠، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨م.

- لوقا، إسكندر، الحركة الأدبية في دمشق ١٨٠٠ - ١٩١٨، دمشق، مطابع ألف باء - الأديب ١٩٧٦م.

٣ - المجلات:

- الخطيب، محب الدين، زهد الشيخ طاهر الجزائري، في مجلة الزهراء، المجلد الثالث، الجزء السابع، ١٣٤٥هـ نفسه، كَوْلد صِهَر والشيخ الجزائري، في مجلة الأزهر، المجلد الخامس والعشرون والجزء الثاني، ١٣٧٣/ ١٩٥٣.

- المبارك، مازن، الشيخ طاهر الجزائري، في مجلة كلية الإسلامية والعربية، دبي، العدد السابع، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣.

- المعلوق، عيسى إسكندر، الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي، في مجلة المشرق، سنة ١٨، عدد ٢٠، ١٩٢٠م.

- المغربي، عبد القادر، الطاهر من آثار الشيخ طاهر أو (التذكرة الطاهرية) في مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق مجلد ٣، الجزءان ٥ - ٦، ١٩٢٣م.

٤ - المؤلفات باللغة الإنكليزية:

-Commins, David Dean, Iclamic Reform Polities and Sacial Change in Late Ottoman Syria, Nem Yark, Oxford Universitx Press, 1990.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

* * *